

11

يوم التآبين

قراية الساعة 40 :7 من مساء يوم 8 تشرين الثاني 2003، خرجت عربتا هامفي من البوابة الأمامية لقاعدة أمريكية في معسكر الرشيد العسكري جنوب بغداد. كانت المهمة إحضار عريف يحضر اجتماعاً في مشفى الدعم القتالي داخل المنطقة الخضراء. وكانت القافلة من فصيل الكشافة في فرقة المقر 2 - 6 مشاة، وهي كتيبة جون بريور. في المقعد الخلفي الأيسر للمركبة الأولى جلس جندي خاص في الثانية والعشرين من عمره اسمه كيرت فروشيسر.

لم يكن هناك شيء ظاهر يميّز الجندي الخاص فروشيسر عن عشرات الآلاف من الشباب المجنّدين الذين خدموا في العراق. كان فروشيسر من دي موا من ولاية أياوا. وكان له أخ توعم، وأخت متزوجة أكبر سنّاً، وكان والداه مطلّقين، وكان طالباً عادياً ومتمرداً بعض الشيء في المدرسة الثانوية، وفي الحادية والعشرين من عمره ترك الكلية، وعاش مع عائلة أخته، وكان يعمل بتوصيل البيتزا، ويحضر الحفلات بكثرة. كانت له ابتسامة صبيانية صفيقة، بفمه الممتلئ وعينه ذات الجفون السميقة التي أخذها عن والده، كان يحب لينيرد سكينيرد وشرطة شيكاغو؛ وفي أحد الأيام في كانون الثاني 2003، دخل إلى البيت، وأخبر أسرته أنه قد تطوّع في الجيش.

لم يكن والده كريس مبتهجاً بالخبر. كانت هناك حرب تدور ضد الإرهاب، وكانت هناك إمكانية قوية لحدوث حرب برية في العراق. لكنه لم يحاول أن يتجادل مع ولده. وفي شهر شباط، جاء كيرت إلى شقة والده في الثانية صباحاً بعد أن كان في الخارج يشرب، وقال: «أريد أن أصبح جزءاً من شيء أكبر من نفسي».

تابع كيرت غزو العراق على شاشة التلفاز، وكان يبدو جاداً أكثر من أي وقت رأته فيه أخته إيرين. كان لديه مجال للتراجع عن التزامه، لكنه غادر بيته في 16 نيسان إلى فورت نوكس، «كينتاكلي»، لحضور التدريب الأساس. وفي شهر حزيران ذهبت العائلة لرؤيته في يوم الأسرة، وذهل كريس فروشيسر للتحول الذي رآه: كان ابنه يقف في انتباه ممتاز في حقل بيرشينغ مدة خمس وأربعين دقيقة بلباسه العسكري. وفي شهر آب من العام نفسه عادوا لحضور تخرجه: الجندي الخاص فروشيسر، يمشي ويفني مع زملائه في الدراسة، «احملوا جرحاكم، احملوا قتلاكم». كانت الكلمات تبعث القشعريرة في فروشيسر، لكن الموسيقا، ودقة التشكيل وحدته، وتحمل ولده، كان كل ذلك يملؤه فخراً. كان هناك شيء جديد ومهم يحدث في حياة كيرت. بعد الاحتفال قال كيرت لوالده: «لم تكن ملتزماً معي بما فيه الكفاية». كان كريس يتلأ دوماً في المناطق غير الواضحة، ويطرح الأسئلة، لكن كيرت كان يريد النور الواضح للقسم والأمر.

عادوا جميعاً إلى دي موا؛ ليقضوا الأسبوعين الأخيرين لهم معاً في نهاية الصيف قبل أن يلتحق كيرت بالفرقة المدرّعة الأولى في ألمانيا. كان يحتفل كل ليلة، لكن الرحيل كان يخيم على الجميع، وفي الليلة الأخيرة، حين أوصلته إيرين إلى الحفلة الأخيرة، وانفتحت لتنظر إليه، قال لها: «أعرف»، وتركها مسرعاً.

قال كيرت لوالده في وقت متأخر من تلك الليلة: «حسناً أيها الرجل العجوز، على الأرجح أنني لن أراك قبل عامين»، وبدأ كلاهما بالبكاء، ومسح فروشيسر بيده على شعر ولده ذي القصة العسكرية. «أعرف أنني سأكون في وضع صعب. لكن كما تعرفني، فأنا أنجو». كان فروشيسر يعرف أن تلك الكلمات كان المقصود منها أن تريجه. فقال لوالده: «عش حياتك، أيها الرجل العجوز».

في ألمانيا، شعر كيرت بالملل من عقله، وكان متلهفاً للالتحاق بباقي فرقته في العراق. مرة ذكر لوالده في مكالمة هاتفية أنه يبدو كأنه لا توجد أسلحة دمار شامل في العراق. «لقد خدعنا. أليس كذلك؟» فقال والده: ليس بالضرورة، قد يكون هناك أسباب أخرى للحرب، مثل الديمقراطية في الشرق الأوسط، ربما كانت أسلحة الدمار الشامل أسهل الأمور التي يمكن أن تقنع الشعب. هيأ الضباط في باومهودلر كيرت والآخرين لما أصبح حرب عصابات

في العراق، وقالوا لهم: ألا يلتقطوا أكياس النفايات، أو يأخذوا الرزم التي يسرع الأولاد في إعطائهم إياها، وحين ذكر كيرت ذلك لإيرين لم تستطع أن تتخيل نفسها في مكان كهذا، حيث لا تستطيع أم مثلها أن تسمح لأولادها بالخروج من البيت؛ خوفاً من انفجار شيء.

وفجأة أصبح كيرت بعد ذلك على متن طائرة إلى الكويت. وفي نهاية شهر تشرين الأول كان في بغداد، في الوقت الذي كانت اعتداءات رمضان تشتعل.

في 6 تشرين الثاني استطاع الاتصال بالإنترنت، وأرسل رسالة إلكترونية لأخته: «القطاع الذي نقوم بحراسته جيد، ونحن لا نتعرض لإطلاق النار، ولا نجد عبوات ناسفة بسيطة، حيث كانت طريقتهم الرئيسية في مهاجمتنا هي وضعها في أكياس، لكنهم الآن يضعونها في الحيوانات الميتة أو الكتل الإسمنتية لإخفائها بشكل أفضل. من المرعب أن نعرف أنهم في الخارج، لكن كما قلت فإن منطقتنا مؤمنة وكل شيء سيكون على ما يرام». وحين كتب لوالده عن مهمته الأولى خارج المدينة التي كانت دورية ليلية مليئة بالأحداث، كان كيرت أكثر وضوحاً: «وجدت نفسي أفكر أنني في بلد فقد فيه كثير من الجنود حياته، لكن في الوقت الذي قضيته فيه كان هادئاً باستثناء الكلاب الشاردة التي تتبع. العراقيون يكرهون الكلاب؛ لذا فجميعها برية ولم تستحم مرة في حياتها. وليس في العراق مجار؛ لذا فهم يحفرون قنوات ويتركون الفضلات في الشوارع، فتفوح منها رائحة كريهة جداً. وكما قال الجنود الذين كانوا هنا منذ البداية؛ فهي أماكن ذات رائحة سيئة لدرجة تجعلك تتقيأ. وحسبما أرى، فإن الأمر سيسفرق أكثر كثيراً مما يقول رامسفيلد وبوش: إنهم بحاجة إليه لإعادة الأمور إلى وضعها في هذا البلد الكريه. تحدّث كيرت مرة مع والده على الهاتف باختصار، وقال: «متفجرات محلية الصنع، أيها العجوز، متفجرات محلية الصنع».

في مساء 8 تشرين الثاني، كان كيرت جالساً على سريرته، يصنف ويعد ذخيرته، حين جاء الأمر بمهمة إلى مشفى الدعم القتالي. كان يتدرب لنيل شهادة سائق عربة هامفي، وقفز لينتهاز الفرصة لتجربة القيادة في بغداد ليلاً. في أثناء الأيام القليلة التي قضاها مع كتيبته عرف أنه مُجدّ وسريع التطوُّع. تسابق هو وصديقه المقرب في الوحدة، المجند مات بلاملي من تينيسي إلى المركبة. ولما كان الباب الخلفي الأيمن صعب الفتح، اتجه كلاهما نحو الباب الأيسر، فوصل كيرت أولاً.

بعد خروجه من القاعدة بخمس دقائق، بينما كانت القافلة تتطلق شمالاً نحو وسط بغداد، كانت على الطرف الأيسر للطريق السريع المظلم أمامهم على بعد ثلاثين قدماً قذيفتان مدفعتان من عيار 130 مم محشوتان بمادة سي 4 الروسية بقوة هائلة: شعلة مضيئة، ودخان أسود، وغبار متطاير، ورائحة متفجرات. مزقت رجلي السائق، الجندي الخاص مات فان بورن، بسبب القطع المشتعلة المتطايرة، لكنه أسرع بضع مئات من الياردات على الطريق السريع؛ ظناً منه أنه يستطيع أن يدخل بوابة الحشاشين، إلى أن طلب إليه الرقيب الأول الجالس أمامه، داريل كلاي، أن يتوقف.

بدأ المؤذن ينادي المؤمنين للصلاة. وفي الخلف في عربة الهامفي، كان كيرت ساقطاً في مقعده. وحين تفقد بلاملي نبضه، كان قد توقف. كان ينظر من النافذة -التي لم يكن لها زجاج واقٍ- التفت برأسه جهة اليسار، واخترقت قطعة معدن فضية الجانب الأيمن من جمجمته تحت الخوذة تماماً بين عينه وأذنه وخرقت دماغه. حُمل كيرت فروشيسر بطائرة مروحية إلى مشفى الدعم القتالي في المنطقة الخضراء، حين أعلنت وفاته في الساعة 8:17 مساءً.

في الساعة السادسة والنصف حسب التوقيت المحلي من صباح اليوم اللاحق، الأحد، رنّ الهاتف في الشقة الصغيرة التي يعيش فيها كريس فروشيسر العازب في دي موا. كانت المكالمة من مقدم في الحرس الوطني بأياوا الذي كان على بعد بناءين ويحاول إيجاد العنوان. قال له باقتضاب: «لدي رسالة من الجيش»، عندها عرف فروشيسر؛ لأنه سأل أحد الضباط قبل أسبوع: ماذا عليه أن يتوقع إذا حصل شيء لكيرت، وقال له الضابط: إنه سيتلقى مكالمة هاتفية إذا كان مصاباً، وزيارة إن كان قد قُتل. قابل فروشيسر المقدم أمام المبنى ودعاه للدخول، وكان يتحرك مفترضاً أن كل هذا قد يكون خطأً، وأجريا حديثاً مختصراً في غرفة الجلوس. ذهب فروشيسر إلى المطبخ لإعداد فتجان من القهوة. وحين عاد، وقف المقدم فجأة باستعداد: «يؤسفني أن أخبرك أن ابنك كيرت قد قُتل بسبب الأحداث في بغداد».

«ليس كيرت! ليس كيرت!».

ركض كريس فروشيسر إلى الصلاة، ثم عاد يركض إلى غرفة الجلوس. سأله المقدم إن كان يستطيع الاتصال بأحد؟ لكن فروشيسر كان يتصل بإيرين، ثم اتصل بصديق أوصله إلى بيت ابنه الثاني، توعم كيرت، جويل. ضرب فروشيسر على النافذة، وهو يصرخ: «إنه كيرت، إنه ولدنا كيرت!» ثم انطلق هو وجويل معاً إلى الحي الذي تسكن فيه إيرين. كانت بقية اليوم والأيام اللاحقة مليئة بالدموع والأصدقاء والخمر والإعياء.

في يوم 11 تشرين الثاني، يوم المحاربين القدماء، اجتمعت كتيبة كيرت، (كتيبة المشاة 6-2)، في القاعدة الأمريكية جنوب بغداد للتآبين. كان جون بريور هناك، وكذلك القائد الآخر روبرت سووب الذي كتب فيما بعد وصفاً للحفل:

في الخلفية أصوات ناس يتكلمون، ومركبات تعبر، وطائرات مروحية فوقنا. بعض الطيور تطير فوقنا بشكل متقطع. وفراشة تمرّ بنا. أنا أرى أحد المترجمين العراقيين من مركز الترجمة الرسمي يجلس على كرسي ويقرأ ورقة، بينما تقف بقية الكتيبة في الصفوف. يفترض أن يبدأ الحفل الساعة 14:02، لكنه لم يبدأ حتى 48:2 لأنه كان علينا أن ننتظر وصول اثنين من الجنرالات.

بدأ الحفل بصلاة من القسيس، وبعد ذلك تحدّث كل من آمر الكتيبة وأمر السريّة. وتبعهما جنديان خاصان كانا يعرفان الجندي. أحد الجنديين اختق وبكى، بينما كان يثني على كيرت. نظرت حولي إلى بحر من الوجوه الحزينة، وفي مؤخرة صفوف الكتيبة رأيت أن إحدى الجنديات المرتبطات بفرقتنا كانت تبكي.

عزف زمّار مقطوعة «Amazing Grace» بشكل سيئ حتى إنها في وسطها بدت لا تشبه الأغنية. قام الجندي الذي عزف «Taps» في نهاية الاحتفال بعمل أفضل كثيراً.

بعد انتهاء المقطوعة الأولى وقبل بدء المقطوعة الأخيرة، تلا القسيس آيات من الإنجيل، ثم قدّم رسالة تأبينية وصلاة. وبعد ذلك كانت هناك دقيقة حداداً. ثم قرأ الرقيب الأول بالوكالة في السرية قائمة الحضور، وكان ينادي بأسماء الجنود في الوحدة. أجابوا جميعاً،

واحداً تلو الآخر، بأنهم حاضرون. وحين وصل إلى الجندي القتيل، كان كل شيء هادئاً.

نادى باسمه ثانية، لكن دون إجابة. فقام بذلك للمرة الأخيرة، مستخدماً اسمه الكامل ورتبته:

صمت.

ثم بدأت معزوفة «Taps» الحزينة. وفي منتصف المعزوفة بدأ عازف البوق يبتعد ببطء، جاعلاً الموسيقى تخفت بلطف عن بعد. مشى جيس إلى المكان الذي كان فيه سبعة جنود يقفون ومعهم سبع بنادق. أعطى الأمر، وأطلقوا ثلاث مجموعات من الرصاص؛ ليقدماوا تحية بإحدى وعشرين طلقة.

حين انتهوا مشت الكتيبة إلى النصب التذكاري الذي كان عبارة عن بندقية إم 16 ذات حربة معلقة بحامل خشبي، وفي أعلى السهم كانت هناك خوذة معلقة تتدلى منها بطاقتان عليهما اسمه ورقمه الاجتماعي وفصيلة دمه وديانته. وأمام البندقية مباشرة في وسط النصب التذكاري تماماً كان هناك زوج من الأحذية العسكرية. وإلى يمينه ويساره نجمتان برونزيتان وقلبان أرجوانيان في حقيبتيهما المصنوعتين من الحرير والمخمل. وخلف البندقية كان هناك سيفان متصالبان يمثلان الوحدة التي ينتمي إليها. تبع باقي الجنود قائد الكتيبة الذي حيا النصب التذكاري الذي يمثل الجندي الخاص فروشيسر، إلى أن حيا جميع جنود الفرقة، ويمكن لباقي الحضور أن...

هذه هي المرة الثانية التي أضطر فيها لحضور حفل كهذا في هذا العام، وأنا لا أشعر بالراحة لقيامي بذلك. مشيت إلى النصب التذكاري بالطريقة التي مشيت فيها في شهر نيسان الماضي إلى نصب جندي آخر في سريتي، كنا قد أقمنا له المراسم نفسها في حفل من الأوساخ قرب المدرج في مطار بغداد الدولي. لم أحن رأسي أو أصل أو أهمس بشيء كما فعل كثيرون قبلي. لم أنحن لأمس طرف حدائه، كما فعل رئيس العرفاء قبلي. قدّمت التحية فقط، ثم استدرت وابتعدت.

أراد كريس أن يرافق جثمان ولده عند عودته من بغداد، أو على الأقل أن يلاقه في قاعدة دوفر الجوية في ديلاوير. في النهاية كان يكفي أن يتسلم النعش في مطار دي موا مع ثلاثين

من أفراد العائلة والأصدقاء وأن يرى وجه كيرت مرة أخيرة. حاول فروشيسر أن يقول: إن شجاعة ولده ملأته بالخوف، لكنه لم يستطع أن يعبر عن أفكاره بشكل جيد. حصل كيرت على جنازة عسكرية بعد المراسم الكاثوليكية ودُفن في مقبرة غلينديل.

قالت زوج فروشيسر السابقة جيني، والدة كيرت، لصحيفة محلية: «كان يجب هذه البلاد ومبادئها. كان يجب أيأوا. شرف لي أن أقدم ابني؛ لأحافظ على طريقة حياتنا». كانت قد أصبحت مسيحية إنجيلية، وقالت: إن كيرت تطوَّع لقتال قوات الشر. كان ذلك إيحائياً جداً لكريس فروشيسر، افتراض نوع من الحرب الدينية، كما أن كيرت لم يكن يتحدث بهذه الطريقة. في الليلة التي وصلت فيها الأخبار الرهيبة، اتصل الحاكم توم فيلساك؛ ليقدم التعازي وقال: إنه يأمل أن تكون سياسات البلاد صالحة مثل أبنائها. قلق فروشيسر من فكرة أنها قد لا تكون كذلك. كان يقارن باستمرار بين قسَم الرئيس حين تسلم منصبه وبين القسَم الذي أقسمه ولده حين أصبح جندياً؛ هل كانا ينفذان قسَميهما بالجدية نفسها؟ في شهر كانون الثاني كتب أحد أصدقاء كيرت من فورت نوكس رسالة بالبريد الإلكتروني قال فيها: «لا أعتقد أنه كان في عربة هامفي مدرّعة، أليس كذلك؟ ربما لا، فالعم سام لن يعطينا أشياء جيدة». لم يعرف فروشيسر الإجابة، لكن التفكير في ذلك لم يساعده، ولو قليلاً في التغلب على حزنه.

جرت كل هذه الأمور بسرعة هائلة، واتساع تاريخي كبير - ابنه، في الجيش، في العراق، أحداث رمضان، ضربة في الرأس - حلم فروشيسر أنه في الجيش مع كيرت، مع أنه لم يكن من الواضح إن كانا أباً وابنه أو صديقين، لكن كليهما كان يجلس في الطرف الأيمن وحين جاء الانفجار سقطا من عربة الهامفي معاً وكان كل شيء على ما يرام. لم ينسَ فروشيسر فكرة أنه لم يكن مع كيرت في تلك الليلة ليحميه، وكذلك لم تفارقه فكرة أنه لم يرسل إلى كيرت الكتاب الذي طلبه لتولكينز The Return of the King. كان يضع ساعة كيرت في يده، وكانت لا تزال على توقيت بغداد، وكان المنبه فيها يرن كل يوم في الساعة 6:30 صباحاً و9:30 مساءً في ديموا. ظل أسابيع وأشهرًا يحاول أن يعرف معنى موت ابنه، لكنه لم يستطع الوصول إلى حل.

كان فروشييسر في الخامسة والستين من عمره. وهو ابن لبائع من شيكاغو، ويتحدث بلهجة هادئة غربية وسطى، وقد قضى معظم حياته يعمل في التأمين قبل أن يبدأ مهنة جديدة؛ هي مدير خدمات اجتماعية لجيش الإنقاذ في دي موا، حيث كان يحاول حل مشكلات حالات الشدائد التي تأتي إلى مكتبه، ويقدم الطعام للرجال الذين ينامون تحت الجسور. كان ديمقراطياً طوال حياته، وكان قد دعم روبرت كينيدي عام 1968 حين كان طالباً. لم يكن يستطيع أن يشارك في الحركة الراضة للحرب، على الرغم من أنه كان يعتقد أن فييتنام كانت خسارة هائلة، لكنها لم تكن سبباً يجعل المرء يكره بلاده. حتى حملة جين ماك كارثي لفتت نظره بأنها نخبوية، وغير تقليدية وحين قال ماك كارثي: إن كينيدي كان «يدير أقل الناس ذكاء وثقافة بالشكل الأفضل»، جعلت هذه الكلمات الصبي الذي ينتمي إلى الطبقة المتوسطة الدنيا ويرتاد جامعة دريك مستاءً. كان أمثال توم هايدن في العالم سينجحون كيفما قضوا شبابهم، وعلى أمثال كريس فروشييسر أن ينتبهوا لما يفعلون في وقتهم.

كان كريس جزءاً من أمريكا الوسطى، لكنه لم ينضم إلى ردة فعل نيكسون وريغان: ظل تحريراً، على أسس اقتصادية في الغالب. وحين تراجعت نوعية المرشحين الديمقراطيين، عاد إلى أحد الاهتمامات الأكاديمية التي كانت لديه في سنوات دراسته الجامعية، وكانت الشقة التي استأجرها بعد طلاقه في منتصف تسعينيات القرن العشرين مليئة بكتب عن روزفيلت وترومان وآشيسون، التحرريين في منتصف القرن الذين بدوا أكثر حكمة وقسوة من ورثة جورج ماك غوفرن. قرأ روايات تاريخية عن الحريات الأربع لفرانكلين د. روزفلت ومذهب ترومان، وعندما تم نشر تقرير لجنة الحادي عشر من أيلول اشترى واحدة من النسخ الأولى. وحين قرأه استنتج أن أفكار ذلك الجيل السابق من الديمقراطيين الذين حاربوا ضد الفاشية والشيوعية، بينما كانوا ينشئون تحالفاً للديمقراطيات، يجب أن تعاد وتطبق على الحرب ضد الإرهاب والصراع في العراق. كان مضطرباً مع صديقه الديمقراطي الذي فكّر أن العراق فييتنام أخرى، ولم يستطع أن يحتمل أن يسمع أن حياة كيرت قد ضيقت. وحين اتصلت به جماعة كاثوليكية محلية في نيسان 2004 لتقدم التعازي، وأعلمته أن صورة كيرت مع صور الآخرين الذين قتلوا من أهل أيوا، ستعرض في سهرة أسبوعية

على ضوء الشموع، اتصل كيرت وطلب عدم استخدام صورة كريس. كان يعتقد أن تقديم التعازي يجب أن يكون قبل ذلك، كما أن روح السهرة كانت حول سياسة الحرب، وليس حول الجنود. لكن حين اشترى شمعة تدوم طويلاً من متجر كتب مسيحي وأخبر عاملة الصندوق أنها لقبر ولده، وقالت له: «شكراً لتضحيتك»، بدا له ذلك غريباً أيضاً. فلم يكن ذلك خياره. في مؤتمر أياوا التحضيري في ذلك الشتاء دعم فروشيسر السيناتور جون إدواردز. كانت لديه شكوك حول جون كيري. وحين دعا صديقاً له تصويت كيري ضد تخصيص مبلغ سبعة وثمانين مليون دولار للحرب «تصويتاً احتجاجياً»، قال فروشيسر: «هذه قضية خطيرة تستدعي التصويت الاحتجاجي». تساءل إن كان كيري بصفته رئيساً يمكن أن يثبت في العراق تحت الضغط من قاعدة الحزب الناشطة. وإلا فما معنى موت كيرت إذاً؟ وحين قال الرئيس بوش في خطاب له: «سنحتفظ بهذه الأرض التي كسبناها بصعوبة»، وجد اللغة ملهمة. أما لغة كيري فلم تلهمه. ظل فروشيسر يتذكر رسالة لينكولن إلى الكونغرس عام 1862: «لما كانت قضيتنا جديدة، فعلياً أن نفكر بطريقة جديدة، ونتصرف بشكل جديد. علينا أن نحرر أنفسنا وبعدها سننقذ بلادنا». كان يتوق لسماع كلمات كهذه من قائد في وقت الحرب؛ كانت السياسة بحاجة لفن التفسير. لكن بوش، الذي كانت له أخطاء كثيرة، لم يكن قادراً على الاعتراف بها أو حتى رؤيتها؛ ومع أفضل تعليم يمكن أن يشتريه المال، كان يبدو أنه لا يعرف إلا القليل عن العالم. كانت الحرب تزداد سوءاً، ولم يكن هناك ما يشير إلى أن أحداً في القيادة يستطيع أن يقلب الأمور. وكان فروشيسر يريد أن يرى حكومة وحدة وطنية، تتألف من توماس كين ولي هاملتون من لجنة 11 أيلول، وأعضاء مجلس الشيوخ بايدن وفاينستاين وهاغل وليبيرمان ولوغار وماك كين. كان العراق أهم من أن يترك للمتحيزين.

بينما كنت في العراق وصلت رسالة من دي موا. كان كريس فروشيسر قد قرأ شيئاً كتبته عن جون بريور، وكان يبحث عن طريقة يفهم فيها حياة كيرت القصيرة وموته في العراق. وبعد أن عدت، بدأنا نراسل عن طريق البريد الإلكتروني. كانت رسائل فروشيسر مليئة بأسئلة قلقة، والعودة باستمرار إلى بعض الأفكار غير الحاسمة، لرجل عانى صدمة وقرّر أن يشعر بكل تفاصيلها، وألا يتجنب شيئاً.

1 نيسان، 2004: يريد الديمقراطيون سياسة خارجية وإستراتيجية للأمن القومي؛ ليقوموا بدعمها. لقد أطلت الآن كثيراً، ولم أجب عن أسئلتك بشكل جيد. إن ذلك يظهر ازدواجية وصعوبة في الحديث عن شيء أكثر من الأمور الشخصية. أسف، هل يمكنني أن أكتب لك لاحقاً؟ فأنا لا أستطيع المتابعة الآن. أعدت قراءة خطاب ترومان «مذهب ترومان» وخطاب بدء مارشال في هارفارد في حزيران 1947. لقد احترمتهم واحترمت تلك السياسات. علي أن أتجنب المرارة. أنا أحترم كيرت وغيره من الجنود، فالشعور بالمرارة يبدو غير لائق. إلى اللقاء في المزيد لاحقاً، إن لم يكن لديك مانع.

1 نيسان 2004: ما الذي يريده كيرت؟ إنه دليلي. أحياناً تكون «حماية القوة» والعمل في صراع، لكن يجب القيام بكل ما ينبغي فعله لحماية هؤلاء الشجعان، جنودنا. أنا أفتقد ولدي كثيراً! دموعي تنهمر طول اليوم. ما قيمة ذلك؟ عراق ديمقراطي؟ هل يساعد جنودنا في تحقيق عراق أكثر حرية وديمقراطية؟

15 أيار 2004: أحياناً أفكر في كون كيرت في بغداد في العراق جزءاً مما يسمى «عملية الحرية العراقية». قال كيرت: إنه يريد أن يكون جزءاً من شيء أكبر من ذاته. كان في وسط شيء كبير لدرجة: إنه يصعب فهمه. يمكن قول المزيد عن ذلك، أنا أريد فقط أن أعرف ما هو. لقد مات ابني لأجل شيء ما. وإن مجرد التطوع في الجيش شرف، فكيف بالخدمة في العراق.

26 أيار 2004: أريد لهذا أن يكون «نجاحاً» للعراقيين والولايات المتحدة، ومن أجل التضحية التي قدّمها كيرت وجميع الآخرين، ومن أجل ألم عدم وجود كيرت بيننا بعد الآن. كيرت ابني وشقيق إيرين وجويل وخال كولين ومادلين. أنا لا أحاول أن أكون درامياً بشكل مبالغ فيه، سيد باكر، أنا فقط أحاول أن أعبر عن «الشعور» الذي يسببه ذلك الأمر.

5 تموز 2004: (في أوائل تموز عادت الفرقة المدرّعة الأولى أخيراً إلى ألمانيا بعد أكثر من سنة في العراق): أنا أشعر الآن بنوع من الضياع بسبب مغادرتهم، دون كيرت. قد لا يكون لهذا معنى لكن ساعة كيرت على توقيت بغداد ووحدته ليست هناك، مع أنه كان معهم هناك. إنه الآن ليس معهم في باوهولدر. لهذا فإن الأمر يستغرق وقتاً طويلاً لكي نعرف ماذا، نتابع؟ ربما أنا أعيش على هذا النوع من الأشياء أكثر مما يجب. لكن هذا أنا، وسأكون على مايرام.

28 آب 2004: يوم الثلاثاء القادم، سيقم جورج بوش حملة قرب دي موا في مجموعة مزارع تدعى أليمان، أياوا. على ما يبدو أن الحملة قامت بدعوتنا؛ لأننا عائلة كيرت؛ لنكون هناك. تحدثت أنا وجويل عن ذلك وإيرين أيضاً، وسنحضر. أظن أنه تكريم لكيرت. ربما يفسر ذلك بأنه دعم لبوش وربما لا، لكنني سأضع ولائي الديمقراطي ضد ولاء أي شخص. أنا مخوّل بمصافحة الرئيس؛ تقديراً لكيرت. بالإضافة إلى ذلك أعتقد أنه من الغريب أن الديمقراطيين القياديين لم يقولوا لي إلا قليلاً جداً عن خدمة كيرت، وأنا ديمقراطي مخلص. أعرف شخصاً كان يشغل منصباً في الحزب الحاكم، وكان من أوائل المؤيدين لإدواردز. وقد عبّرت عن اهتمامي بالحديث مع إدواردز حول خدمة كيرت. لكن لم يتم ترتيب المقابلة. اعتقدت أن شخصاً مثل إدواردز يجب أن يتحدث مع شخص فقد ابنه في معركة. هل توجد قضية أكبر تعرض هنا حول الديمقراطيين والجنود؟ أشعر أحياناً أنه ليس لدي حزب. قام جون كيري بالفعل بإرسال بطاقة إلى جيني وإلي، لكنني أعتقد بالفعل أن هناك شعوراً بالقلق بين الناشطين الديمقراطيين بشأن «الجنود» بسبب معارضة الحرب.

5 أيلول 2004: متابعة لرسالتي السابقة حول لقاء دويبا، لم يحدث ذلك. لشعوري بالالتزام بتكريم كيرت، لتسلم عرض قائده الأعلى للتكريم والتعزية فقد ذهبت. كنا مجرد جزء من الحضور. كما أن الزوجة السابقة التي استلمت الدعوة من منظمة الحزب الجمهوري المحلية لم تكن سعيدة أيضاً. كان علينا الاستماع إلى «خطاب مكرر»، نسخة مطولة عن ذلك الذي ألقاه في المؤتمر. كان يتكلم على «الحرب ضد الإرهاب» وكأن العراق جزء منها دون أي تمييز بين الحالتين. هل هذا «كذب» أو «انطباع خاطئ»؟ هل هو تضليل، هل هذا صحيح وهو يعلم ولا يريد أن يطلع أحد على معلوماته؟ ماذا على المواطن أن يفعل؟ لقد حظي بكثير من التصفيق لتخفيض العبء الضريبي ولعدم رغبته بأن تتحكم الحكومات الأجنبية في سياستنا، أو أن يكون جنودنا تحت قيادة حكومات أجنبية. ذكر أحدهم في مكان ما أن علاوي مارس هذا التحكم في النجف والفلوجة. أفترض أن هذه نقطة جيدة في انتخاب رئاسي، لكن أين جون كيري؟ هل من الصحيح أنه لا يريد الكلام على العراق لأن «قاعدة» الحزب الديمقراطي تريد الانسحاب ببساطة؟ هذا الحديث عن «مجتمع الملكية» يبدو تمزيقاً للصفحة الجديدة / شبكة أمان المجتمع العظيم / الميثاق الاجتماعي. نحن في

مأزق. سأكون سعيداً حين تنتهي الانتخابات. فأنا لا أستطيع أن أحتمل المزيد من هذا الهراء المستفيض.

11 أيلول 2004: أمضى حفيدي كولن الليلة الماضية عندي. تناولنا البوشار، وزرنا الحدود، وشاهدنا حرب النجوم، وصباح اليوم سبحنا في البركة (كانت باردة بعض الشيء). الحياة تستمر، سواء كنت مستعداً لذلك أم لا. عليّ أن أقول: إن كيرت لم يغب عن بالي قط، قط. ربما لا يكون هذا صحيحاً، لكن هكذا تسير الأمور. أنا في السابعة والخمسين من عمري، جورج، ربما لا أتعافى من هذا أبداً بشكل نهائي. وربما عليّ ألا أتعافى منه. الفكرة هي أن كيرت تركني لكلماته: «عش حياتك، أيها الرجل العجوز»، وإن غاريسون كيلور ذكر في قصيدته يوم التأبين: «ولنعش الحياة الطيبة التي كانوا سيعيشونها». لم يتم تحديد ذلك بعد. لدي اثنان من الأبناء الأحياء واثنان من الأحفاد. ومع ذلك فأنا لا أعلم ما أفعل بهذا كله.

4 تشرين الأول 2004: ما الأفضل لأمريكا والعراق الآن؟ هذا هو السؤال؟ هل هو عراق أفضل؟ هل هذا ممكن؟ لماذا دخلنا العراق؟ ما الذي يسوّغ بقاءنا؟ لأجل ماذا أزهقت أرواح الأمريكيين الغالية؟ هل يمكن تحقيق شيء يستحق التضحية؟ هل هناك أشياء لا يعرفها أحد إلا الرئيس ومستشاروه؟ لا أحد في مجلس الشيوخ أو المنظمات «الفتنة» أو «المطلعة»؟ هل ذلك يسوّغ التضحية؟ وكم من التضحيات يمكن تسويقها أكثر؟ فيما يتعلق بنا يصعب أن نقبل تحويل العراق إلى حرب أهلية. ليس لدي الحق للدفاع عن التدخل المستمرّ بسبب تضحياتي التي ستقود إلى كثير من التضحيات. ما الأفضل لأمريكا والعراق؟ ما الحقيقة على أرض العراق؟ ما الذي يمكن تحقيقه؟ هل يستطيع كيري وفريق من اختياره القيام بذلك؟ إنها قفزة كبيرة للإيمان.

وفي معظم الوقت لا يعنيني شيء من هذا. أنا أريد ولدي، أريد ولدي.

لم تكن الجبهة الداخلية لحرب العراق كتلك التي كانت في الحرب العالمية الثانية، ولم تكن كما كانت في فيتنام. فلم توحد الأمريكيين في خطوط الأحزاب ضد تهديد لوجودهم (قام الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول بذلك، لكن ليس العراق). لم تكن هناك موثيق حرب، أو دوافع جماعية، أو دعوة شاملة، أو تعبئة وطنية. لم نكن جميعاً في الأمر معاً. كما أنه

لم يمزق البلاد. حالما بدأت الحرب، طوت الحركة المضادة للحرب خيمتها وعادت بسرعة. شهدت الذكرى السنوية الأولى والثانية للغزو مظاهرات كبيرة في أوروبا وأجزاء من الشرق الأوسط وآسية، لكن في هذه البلاد، تم إسكات المعارضة المنظمة بضرورة دعم القوات التي تتعرض للأذى. كما أن السهرات على ضوء الشموع كتلك التي عرضت صور القتلى من شباب أيواه في دي موا كانت تكافح للحصول على اتجاه محترم للمعارضة.

هذا لا يعني أن الحرب لم تكن متناقضة: فلم تكن أي مغامرة خارجية أكثر تناقضاً من هذه المغامرة منذ حرب فيتنام. على مستوى معين - كانت رأي نخبة، تم تضخيمه في وسائل الإعلام - ولّد العراق كلمات مريرة كأى حدث في التاريخ الأمريكي الحديث. لكن معظم المواطنين الأمريكيين لم ينقلبوا على غيرهم من المواطنين الأمريكيين بغضب، كما أنهم لم يشتركوا في قضية مشتركة. كانت حرب العراق بعيدة عنهم بشكل غريب. وكان من الصعب دائماً تصوّر المكان، فلم تدخل الحرب الخيال الشعبي في الأغاني التي حفظها الجميع كما جرى في الحروب السابقة. لم يكن من المحتمل أن يقضي روائي ستة أشهر في بغداد ويعود لتحديث رواية (From Here to Eternity) أو (Dog Soldiers). الرواية الأمريكية الوحيدة الضعيفة التي أنتجتها الحرب حتى الآن، نقطة التفتيش (Checkpoint) التي كتبها نيكولسون بيكر، وهي حوار على الغداء في غرفة فندق في واشنطن بين صديقين قديمين، أحدهما يستعدّ لاغتياال جورج و. بوش، كانت ترميزاً ممتازاً لثقافة سياسية أخذت فيها الهيستريا مكان التفكير. لم يكن لرواية بيكر علاقة بالعراق، بل ببشاعة السياسة في هذا البلد. وقد صنع مايكل موور، الجواب اليساري لروش ليمبو، فيلماً لاقى نجاحاً كبيراً صور فيه عراق صدام مكاناً سعيداً يلعب فيه الأطفال بالطائرات الورقية. قدّم العراق شاشة فارغة كان للأمريكيين الحرية في أن يعرضوا عليها ما يشاؤون، ولأن قلة فقط من الأمريكيين لم تكن لهم مصالح مباشرة هناك، فلم يرّ كثير منهم إلا صورة مشاعرهم. بالطبع كان الاستثناء هو الجنود وعائلاتهم الذين حملوا أعباء الحرب كلها تقريباً.

كانت هذه الحالة للشؤون في الجبهة الداخلية بشكل ما التطور الطبيعي لجوسياسي ازداد تسمماً مدة عقد من الزمن. أنتجت حروب الثقافة كرهاً لكلينتون، مما أدى إلى عزله، وأعقب ذلك الانتخاب المتنافس عليه عام 2000، وبعدها كره بوش الذي كان شديداً

ومجنوناً مثل سلفه. وقد قدّم العراق مستوى من الانحدار. وبينما كان قتال الشوارع في أواخر ستينيات القرن العشرين نتيجة لحرب فييتنام، ولم تكن حروب الكلمات في أوائل القرن الحادي والعشرين نتيجة للعراق، بل كان الأمر معكوساً.

كانت الحرب الأولى للمدوّنين، والصفات المميزة للشكل - الاستجابة الفورية، والهجوم على الشخصيات، والبعد عن الحياة، وغرفة صدى الأصدقاء والأعداء - قد حدّدت نوعية الجدل حول العراق بشكل أفضل كثيراً من التحليلات المسوغة والعروض التي تختفي سريعاً عن الأنظار في الصحف المسؤولة ومجلات السياسة. من زعماء المدوّنين، أندرو سوليفان الذي كان له أفكار ثنائية مكرّمة حول إدارة بوش والعراق، وقد ردّ على أخبار أسر صدام في كانون الأول 2003 بأن كتب: «كان يوم فرح. لم يعد هناك ما يقال. فرح». كان قد سلّم إحدى عشرة مكافأة وهمية لليساريين الذين عبّروا عن سعادة غير كافية أو عبّروا بصراحة عن حزنهم لتلك الاخبار. وفي رد على تصريح لمدوّن عراقي شكر فيه قوات التحالف من قلبه، كتب سوليفان على جهاز الحاسوب الخاص به في واشنطن: «على الرحب والسعة... لقد قام رجال ونساء قواتنا المسلحة بأكثر الأعمال صعوبة. إنهم يستحقون منا شكراً لا يقدر. لكننا جميعاً قمنا بأدوارنا». كان فرح سوليفان غبطة حقودة وnergسية، وقد مسح بها وجوه خصومه. منذ مدة ما قبل الحرب مروراً بالغزو إلى الاحتلال والتمرد، كان اليمين الصاعد المنتصر واليسار الضعيف المتشكي يهتمون بهزيمة الآخرين ويسعدون أكثر من اهتمامهم بحالة العراق والعراقيين. ففي هذه البلاد، كان موضوع العراق دائماً تقريباً يتعلق بريح الجدل.

كان هذا أوضح ما يكون حين سافرت من مكان لآخر. كنت أعود من العراق بكمّ كبير من التناقضات الواضحة في ذهني ككل وجه رأيته أو صوت سمعته: لقد كان تحريراً، كان احتلالاً، وقد كان العراقيون متفائلين، كان العراقيون غاضبين؛ كانت هناك فرصة للديمقراطية، كانت هناك منطقة إرهاب؛ كانت سلطة الائتلاف المؤقتة تعمل بجدّ، لم تكن سلطة الائتلاف تحقق شيئاً؛ كان الجنود الأمريكيون طيّبين، كان الجنود الأمريكيون متهورين. ثم كنت أجلس لتناول العشاء مع مجموعة من ذوي الفكر التقدمي الذين يريدون جميعاً معرفة الوضع هناك، وقبل أن أصل إلى نصف الطريق لرواية واحدة مع عراقي واحد، كان المهاجم يأتيني بقوة مدهشة، ويتحول الموضوع إلى الحديث عن خطايا إدارة

بوش. وكان العكس صحيحاً، من الطرف الآخر، في الأعمدة والبرامج الحوارية للمعلقين اليمينيين: كل قصاصة من الأخبار الجيدة - اعتقال كبار البعثيين، إعادة افتتاح المتحف - كانت تصبح دليلاً حاسماً على أن الأمر ينجح. كان الجميع يعلمون إن كان الأمر ينجح أم لا، وكان السؤال يأتي عادة مثقلاً، والأفضل أن تكون الإجابة سريعة وبسيطة. لم يكن هناك كثير من الناس في أمريكا يستطيعون احتمال التناقض الذي يعيشه العراقيون كل يوم.

الذهاب إلى العراق بالفعل لم يكن من شأنه أن يتدخل في هذا الاكتفاء الذاتي العقلي. سافر كريستوفر هيتشنز، الذي نشر للتو كتاباً بعنوان *A long Short War: The Postponed Liberation of Iraq* حرب قصيرة طويلة: التحرير المؤجل للعراق، في صحبة بول ولفوويتز في صيف 2003، وأمضى عدة أيام مع نائب الوزير، ثم عاد ليخبر محطة فوكس نيوز أن الأمور كانت تتجح بشكل رائع، حيث كان الأمريكيون مشغولين بإعادة الإعمار، وجمع المعلومات الاستخباراتية، ودحر البعثيين، وبناء صداقات مع الناس، لم تغط الصحافة شيئاً من ذلك. «شعرت بالانزعاج؛ لأنه كان علي الذهاب إلى هناك بنفسني للحصول على معلومات عن أي من ذلك»، اعترف هيتشنز لمذيع محطة فوكس نيوز. في شهر آذار اللاحق، بينما كانت الحرب الطويلة القصيرة تظهر إشارات على أنها تتحول إلى حرب قصيرة طويلة، هبط فريد بارنز، المحرر بصحيفة *Weekly Standard* المؤيدة بنشاط للحرب، في مظلة في المنطقة الخضراء، واكتشف أن الشيء الوحيد الخاطئ في عملية الحرية العراقية هو العراقيون. كتب بارنز: «إنهم بحاجة إلى تعديل موقفهم، يتفق الأمريكيون الذين قابلتهم هنا في أثناء عشرة أيام على أنه من الصعب التعامل مع العراقيين. إنهم متجهمون ومشككون ويفكرون في المؤامرات». لم يكن هذا رأي الصقور من أمثال بارنز قبل الحرب، لكن كان لا بد من وجود ما يفسر جميع العقبات التي في الطريق المؤدي إلى ديمقراطية ناجحة في العراق، وذلك لن يحدث إلا بعد انتشار الامتتان للإحسان الكبير الذي قامت به دولة لأخرى. وقد زارت نعومي كلاين، المعلقة الصحفية في مجلة *Nation* المعارضة للحرب بشدة بغداد في الوقت نفسه الذي زارها فيه بارنز، ووجدت أن التمرد كان يزداد؛ لأن كثيراً من العراقيين يشاركونها آراءها المعارضة للعولمة. في العراق كان من الممكن دائماً أن تثبت أنك كنت على حق طوال الوقت.

ولما كانت حرب العراق بدأت بالأفكار، فقد كانت تعاني التجريد. لكن بعد أن اتخذت هذه الأفكار الشكل الفعلي في الستر الواقية من الرصاص والمتفجرات بوقت طويل، استمر أكثر المشككين من المؤيدين والمعارضين للحرب برؤيتها والحديث عنها «بالمصطلحات الكبيرة المجردة» للمؤرخ الفرنسي مارك بلوك. كانت الكلمات الأساسية في العراق هي «الإمبريالية» و«الديمقراطية» و«استقلالية السياسة الخارجية» و«العولمة» و«أسلحة الدمار الشامل» و«الاستباق» و«الإرهاب» و«حكم الحزب الواحد» و«المحافظة الجديدة» و«الاسترضاء». التقيت بغسان سلامة، المستشار السياسي السابق لسيرجيو فييرا دي ميلو Sergio Vieira de Mello، في لوبي مقر الأمم المتحدة بنيويورك، بعد شهر من نجاته من تفجير في بغداد. بدا سلامة شاحباً، وقال: «العراق بحاجة إلى أن يتحرر، أن يتحرر من الخطط الكبيرة. في كل مرة كان الناس يذكرون ذلك في السنوات الأخيرة، كان يرتبط بأفكار كبيرة: الحرب ضد أسلحة الدمار الشامل، وإنهاء الصراع العربي الإسرائيلي، وأخيراً الحرب ضد الإرهاب وأنموذج للديمقراطية. ولهذا ترتكب جميع هذه الأخطاء. إنها ترتكب لأن هناك من يفكر في العراق دوماً بصفته خطوة أولى لشيء آخر».

سمح بعض العقديين المؤيدين للحرب للأخبار السيئة من العراق أن تعترض تقدّمهم، بينما كانت أعينهم على هذه الأمور العالية. لكن إما أنهم رفضوا أن يصدّقوا، فكانوا يلقون اللوم على وسائل الإعلام والمتخاذلين بأنهم يخفون الحقيقة، أو أنهم واصلوا الأخذ بالنظرة الطويلة للتاريخ التي لا يكاد يحلها نصف مئة عراقي أو عشرة أمريكيين في هجوم انتحاري. لكن هذا كان صحيحاً أيضاً على الطرف المعارض للحرب من السجل. وقد تعلّمت من التجربة أن القصص الفردية للعراقيين الذين يكافحون ضد الخطر، وللحصول على حياة أفضل لأنفسهم ولبلادهم كانت تطرح جانباً بمجرد أن أروها. كان الردّ سريعاً ومؤكداً: «هذه الحرب غير شرعية، وهي غير أخلاقية. لا يمكن للكذب أن يأتي بخير». على الرغم من المصالح الكبيرة والبدايل المروعة، لم يظهر معظم المثقفين والسياسيين المعارضين للحرب اهتماماً بالنجاح. حين خاطر العراقيون بحياتهم للانتخاب، رفضت أريانا هوفينغتون الانتخابات وعدتها «لحظة من لحظات كوداك». لقد كانت الحرب حرب بوش، وإذا أخفقت، فسيكون ذلك إخفاق بوش.

كانت أمريكا في بداية القرن الحادي والعشرين تبدو متحيزة ومقسّمة وصغيرة لدرجة أنها لا تستطيع تدبّر شيء كبير وصعب كالعراق. كانت كوندوليزا رايس وغيرها من كبار المسؤولين مولعين بتشبيه العراق بألمانية بعد الحرب. لكن كانت هناك فجوة كبيرة بين الفكر والجهد الرائع لأفضل العقول التي ذهبت لدحر الفاشية وإعادة بناء ألمانية واليابان، وبين الاهتمام المشاكس الأناني الذي يعود على العراق. فالأول أنتج دليلاً من أربع مئة صفحة عن احتلال ألمانية؛ والآخر أنتج نقاطاً للحديث.

إن ما جعل هذه البيئة السياسية غير مناسبة للعراقيين بالتحديد هو أن إدارة بوش، بدلاً من تزوير الحرب لجعلها قضية وطنية، نفذتها من البداية، وكأنها انتخابات أولية في ساوث كارولينا.

في أعقاب 11 سبتمبر/ أيلول، مُنح الرئيس بوش ما لم يحصل عليه إلا قليل من الرؤساء: الوحدة الوطنية والنية الطيبة لكلا الحزبين. في الأيام التي أعقبت الهجمات الإرهابية، رأينا الخطوات الأولى لشيء يشبه تعبئة ذاتية شعبية. الصفوف الطويلة للمتبرعين بالدم، والمتطوعين المتدفقين من أنحاء البلاد إلى مانهاتن، والجهود العامة الباحثة لفهم الإسلام: اتخذ الردّ نفقات شخصية جداً. قال لي منتج فيديو شاب عاطل عن العمل ينتظر دوره للتبرع بالدم في بروكلين: «تبرّرت؛ لأكون جزءاً من شيء ما. في جميع أنحاء العالم يقوم الناس بشيء من أجل قيمة عليا. كنت لا أعرف أين أنا إلى أن استطعت أن أقول: إنني قمت بشيء أثّر في الإنسانية». لم يكن من الممكن أن يستمر الانتشار المحموم للروح الجماعية، لكن شدتها كانت توحى بأن البلاد كانت قد صحت من حلم يقظة جماعي. بدت أسطورة قرن من الاهتمام بالذات تدرك أن هناك فرصة تاريخية للأمل في شيء أكبر.

كان من الملاحظ في ذلك الوقت أن الرئيس بوش لم يفعل شيئاً لاستغلال هذه الرغبة الملموسة بين الناس العاديين للمشاركة في جهد أكبر. قيل للأمريكيين أن يذهبوا للتسوّق ويحذروا من الأنشطة المريبة. كان بيرل هابر، وكان اليوم السيئ في سوق البورصة؛ لم يكن شيء مماثلاً، وكان كل شيء مماثلاً. تساءل جوزيف بايدن: «كم سيكون الأمر ملحاً إذا أخبرتكم أن هذه أزمة كبيرة، وفي الوقت الذي نسير فيه نحو الحرب، أعطي أكبر استقطاع للضرائب في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية؟» لم يترك استقطاع الضرائب البلاد في أزمة

مالية فقط في أثناء الحرب؛ لكن عدم المساواة فيه تركت أثراً سيئاً في الروح المعنوية. لم يكن من قبيل المصادفة أن الرئيس أخفق في الدعوة إلى تضحية مشتركة متساوية. فقد أتى ذلك مباشرة من الروح السائدة لحركة المحافظين الجديدة التي جاءت بها رئاسته إلى السلطة المطلقة. بعد سنوات من الهجوم المستمر على العمل الجماعي، بقي هناك أساس عقدي يمكن لبوش أن يقف عليه ويسأل ماذا يمكن للأمريكيين أن يفعلوا لهذه البلاد؟. لم يُطلب إلينا بالباح أن ندرس اللغة العربية، أو أن ننضم للسلك الأجنبي أو مجموعات المساعدة الدولية، أو أن نطور مصادر بديلة للطاقة، أو نشكّل احتياطاً مدنياً لحالات الطوارئ، أو حتى أن ندفع كلفة الحرب في وقتنا نحن. سيتحمل الجيل الأمريكي القادم أعباء الحرب، كما يتحملها مئات الآلاف من الجنود المتطوعين في هذا الجيل.

ربما كان ذلك قراءة سياسية فطنة من جهة بوش، وإدراك بأن الأمريكيين (بعد كل مشاعرهم التي أعقبت 11 سبتمبر/ أيلول)، لا بد أن يعودوا للاسترخاء على أرائكهم. مع أنه بدا من العدل أن نسأل: كيف يمكن لجسم سياسي غير متناسق كهذا أن يتقلب على العمل الطويل الشاق لوقت الحرب؟؛ وكيف يمكن أن نكون مقتنعين بتصدير القيم الديمقراطية حين تظهر في ديمقراطيتنا إشارات كثيرة على الضمور؟؛ وكم من التضامن نتوقع أن نحشد للأفغان والعراقيين حين يُطلب إلينا ألا نشعر إلا بالقليل منه تجاه بعضنا.

لذا فقد كانت الأشهر التي أعقبت 11 أيلول فرصة ضائعة، لاستخدام سيل الطاقة المدنية، ولتشكيل حرب جديدة ضد الراديكالية الإسلامية بصفتها صراعاً قومياً. كان يجب ألا يكون على الخبراء في وكالات الاستخبارات والقوات الخاصة فقط، وإنما أيضاً على المواطنين الأمريكيين العاديين أن يشنوا تلك الحرب. وكانت تلك الحرب يجب أن تشن على عدة جبهات، وبأدوات كثيرة، ليست فقط عسكرية، وإنما أيضاً فكرية، وديبلوماسية واقتصادية وسياسية وثقافية. كانت هذه رؤية مهندسي الحرب الباردة في بدايتها، الذين قرأ عنهم كريس فروشيسر في منهاج تاريخ جامعي، وأصبح يحترمهم أكثر حتى بعد 11 سبتمبر/ أيلول. لكنها لم تكن رؤية الرئيس. كانت خطابات بوش محلقة وملهمة، لكن أفعالها أظهرت أن لديه إستراتيجية ضيقة لخوض الحرب، بلغت إيجاد الإرهابيين ومن يدعمهم وقتلهم. أما البرامج الأخرى، كاستقطاعاته الضريبية وسياسة الطاقة والمعارك المريرة

التي أثارها، فقد مزقت وضوح ووحدة الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول. استمر بوش في الحكم من قاعدته العقديّة. كانت رسالته للشعب بشكل أساس: «ثقوا بي»، وانزلق الشعب في استسلام خائف.

كل ما بقي من التماسك الوطني حتى منتصف عام 2002 فسد في الحشد لغزو العراق. فقد فرض البيت الأبيض تصويتاً للكونغرس على قرار الحرب قبل شهر من الانتخابات النصفية عام 2002، في جو من الإهانات المتحيزة. فبينما كان الجمهوريون في البيت الأبيض ومجلس الشيوخ يتهمون زملاءهم الديمقراطيين باسترضاء صدام كان الآخرون في أثر الحملة يتهمون خصومهم بإهمال واجب الدفاع عن البلاد بسبب معارضة الديمقراطيين لمشروع قانون الأمن الداخلي الذي تم تصميمه لإضعاف اتحادات الخدمة المدنية. (فبعد أن رفض البيت الأبيض فكرة إدارة الأمن الداخلي من البداية، كتب مشروع القانون بعد ذلك بلغة أجبرت الديمقراطيين على الاختيار بين فكرتهم وبين أساس عملهم). وقد قام جوزيف بايدن، الذي كان يعمل مع زميله ريتشارد ولوغار، الديمقراطي رفيع المستوى في لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ، بإعداد قرار حرب وضع بعض القيود على قدرة الإدارة على التصرف، مما قلل بعض الشيء من احتمال ذهاب أمريكا للحرب دون مشاركة دولية، لكنه أعطى فرصة أكبر لكسب دعم حزبي. ناور البيت الأبيض لإعاقة مشروع القرار الذي كتبه بايدن ولوغار، وأصدر مشروعاً لتصويت أكثر تحيزاً. كانت إستراتيجية المستشار السياسي لبوش، كارل روف، التي أثمرت في شهر تشرين الثاني، حيث استعاد الجمهوريون دعم مجلس الشيوخ، وأضافوا أغلبيتهم في البيت الأبيض. لكن الإدارة تركت أقلية ديمقراطية تشعر بالمرارة وناخبين منقسمين بشكل متزايد، بينما كانت تحضر لأخذ البلاد إلى حرب كبرى.

كان الرئيس يسلك طريقين في آن واحد: إعادة تشكيل السياسة الأمريكية الخارجية، وتعزيز قبضة حزبه على السلطة. وربما لا تأتي بجديد إذا أشرنا إلى أن هذين الطريقين قد يتعارضان في النهاية، مما يعرض المصالح الوطنية للمخاطرة. في خريف عام 2002، لم يكن من الممكن بعد تخيل سياسة تستخدم كلا الحزبين وحلفاء أمريكا الديمقراطيين في القضاء على الاستبداد في العراق. فقد كانت سياسة كهذه تتطلب من الإدارة العمل بمرونة وانفتاح أكثر مما أرادت أن تعمل به. وكان المفروض عرض الدليل على وجود

أسلحة غير تقليدية دون مبالغة أو خداع. وفور عودة مفتشي الأمم المتحدة إلى العراق، كان من الواجب السماح لهم بأداء عملهم بدلاً من إضعافه بحملة الطعن ضدهم. كان يجب أن تكون شهادتهم أمام الكونغرس صريحة وغير مراوغة. وكان يجب الاستماع إلى موظفي الإدارة الذين قدموا آراء مخالفة أو توقعات متشائمة بدلاً من إسكاتهم أو طردهم. وكان يجب الترحيب بخبراء بناء الأمة بدلاً من إغلاق الأبواب في وجوههم وإن كان لديهم ما لا يريد البيت الأبيض سماعه. كان يجب معاملة المواطنين الأمريكيين بصفتهم راشدين وليس كما اقترح رئيس هيئة الأركان في إدارة بوش، آندرو كارد، مرة أطفالاً في سن العاشرة.

وبعد الغزو، كان يجب إقناع الحلفاء الأوروبيين بالمشاركة في الجهد الذي كان بحاجة ماسة إلى مساعدتهم. وكان يجب دعوة الشركات الفرنسية والألمانية والكندية لتقديم عروض للحصول على العقود، وليس تقييدها بقرار وقعه بول وولفويتز (الذي كتب مرة أن القيادة الأمريكية تتطلب «أن تثبت أن أصدقاءك سيكونون تحت الحماية والرعاية، وأن أعداءك سيعاقبون، وأن من يرفض دعمك سيعيش ليندم على ذلك»). كان يجب إخضاع المتهمين الأمريكيين المقربين من البنتاغون لفحص استثنائي، ليس فقط للتأكد من عدم إهدار مليارات الدولارات في العراق، بل لتجنب مجرّد مظهر الفساد. كان يجب أن يبقى الكونغرس على اطلاع دائم وبصراحة على الوضع على الأرض. وكان يجب إعطاء طوني بلير شيئاً مقابل دعمه الصامد، كجهد جاد في حلّ المشكلة الإسرائيلية الفلسطينية. وكان يجب إحضار الأمم المتحدة إلى العراق بصفة شريك مكافئ، وليس أداة لراحة أمريكا. ربما كان يجب حتى أن يكون كبير المدنين في العراق ديمقراطياً، أو جمهورياً معتدلاً كالجنرال المتقاعد أنطوني زيني، الذي وصفه مسؤول في الإدارة بشكل خاص بأنه أكثر شخص مؤهل للعمل الذي يقوم به بول بريمر. قال المسؤول: «عليك أن ترتقي فوق السياسة، و عليك أن تختار الفريق الأفضل، عليك أن تكون مثل فرانكلين روزفلت». وكان يجب أن تختار سلطة الاحتلال من تعينهم من السياسيين قدر الإمكان من الخبراء ذوي الكفاية غير المتحيزين الذين يتمتعون بخبرة في الخارج. كان على سلطة الاحتلال أن تركز على المجتمع العراقي، لا أن تكون مجرد سلاح بيد البيت الأبيض. وكان يجب ألا تكون تصريحات مكتبها الإعلامي اليومية مثيرة للضحك.

و حين ظهر عدم وجود أي من أسلحة الدمار الشامل في العراق، كان على الإدارة أن تعترف للعالم بذلك. كان على الرئيس أن يقدم خطاباً يذاع على قنوات التلفزة الوطنية، يذكر فيه ما قاله كبير مفتشي الأسلحة، ديفيد كاي: «جميعنا كنا مخطئين تقريباً». كان على الرئيس أن يحذف العبارات المراوغة مثل «أنشطة برامج تتعلق بأسلحة الدمار الشامل» من خطابه. كان يجب معاقبة الموظفين والجنرالات المسؤولين عن الفضيحة والإخفاق، وليس التبريت على أكتافهم أو تقليدهم ميداليات الحرية. وحين طلب الصحفيون من الرئيس أن يذكر خطأً واحداً ارتكبه في العراق، كان عليه أن يذكر لهم خمسة أخطاء، ويطمئن البلاد أن هذه الأخطاء يتم تصحيحها؛ لأنهم كانوا قادرين على تحديدها. كان عليه أن يستجمع كل مهارته البلاغية؛ ليفسر للبلاد أن إنهاء الاستبداد في العراق ومساعدته في أن يصبح بلداً ديمقراطياً كبدية للتغيير في الشرق الأوسط هو، (على الرغم من الإخفاق الفشل في إيجاد الأسلحة) الشيء الصحيح الذي يجب القيام به، وأنه ضروري للأمن الأمريكي، وأنه يستحق الجهد الذي ستبذله الأجيال. في الحقيقة كان عليه أن يشرح ذلك قبل الحرب، حين لم يجد المفتشون أي دليل على وجود الأسلحة، وبذلك يسمح للبلاد أن يكون فيها مناقشة فعلية للسبب الحقيقي للحرب، وحين تأتي الحرب، لا تأتي وسط الشكوك والمفاجآت المنتشرة، ولن تبقى أمريكا وحدها في العراق.

الشخصية قدر. فما منع حدوث أي من هذا كان قبل كل شيء شخصية الرئيس، فقد كان بوش يدير حربه، كإدارته لحملاته السياسية، في غياب الفضول والنقد الذاتي، وبتقديره للثقة المطلقة، والولاء الشديد الذي يمنحه ويطلبه. كان دائماً يعبر عن انطباعه بأن العراق والحرب ضد الإرهاب كانت اختبارات شخصية. وكلما فجر انتحاري نفسه، كان يحاول أن يهز إرادة جورج بوش. فإذا بقي بوش صامداً، كيف يمكن أن تخفق أمريكا؟ كان يجب أن يسمي نفسه رئيس زمن الحرب، وكان يحتفظ بتمثال نصفي لبطله وينستون تشرشل في المكتب البيضاوي. لكن تشرشل كان يقود حكومة وحدة وطنية، ولم يقدم لشعبه إلا الدم والتعب والدموع والعرق. كان بوش يتبع باستمرار برنامج العمل الجمهوري المتحيز، وهو يخوض الحرب، وكان ما يقدمه هو توقعات متفائلة، واقتطاعات ضريبية دائمة، وعزيمة مثيرة.

مرة فسّر أحد مستشاري بوش للصحفي رون صصكيند النظرة العالمية للبيت الأبيض: بينما كان خبراء بناء الأمة ونقاد الحرب ورون صصكيند يعيشون «فيما نسميه مجتمعاً قائماً على الواقع» يؤمن الناس فيه «أن الحلول تأتي من دراستك المتعلقة للواقع القابل للإدراك»، لسوء الحظ «لم تعد هذه هي الطريقة التي يسير بها العالم فعلاً». فالطريقة التي يسير بها العالم الآن تصل إلى نبذ العقل، والذكاء المشكك، وكل قائمة قيم التنوير. «نحن الآن إمبراطوية، وحين نتصرف، ننشئ واقعنا. وحين ندرس ذلك الواقع -بتعقل، كما ستفعلون- سنتصرف من جديد، وننشئ حقائق أخرى جديدة، يمكنكم دراستها أيضاً، وهكذا تصنّف الأشياء. نحن ممثلو التاريخ»، وختم المساعد قائلاً: «وأنتم جميعاً، لن يبقى لكم إلا أن تدرسوا ما نفعله نحن».

هذه هي رئاسة بوش دون الخطابات الملهمة، التي لها نبرة لينينية أكثر منها مسيحية، لا تقرّر فقط أن تعيد صنع العالم وفق إرادتها التي لا تفسير لها، لكن أيضاً أن تزيح كل الخصوم من طريقها. كانت هناك نقطة ضعف خطيرة فلسفياً وعملياً في مشروع تلك الإدارة لكي تصبح حاملة القيم الديمقراطية للعالم؛ فقد كانت الديمقراطية أصلاً تقوم على النقد الذاتي. لكن لأن الرئيس كان يصلي دائماً بأن يكون «أفضل رسول ممكن لإرادته»، فقد كانت سياسته في العراق ستنجح بشكل أساس، بالإيمان بذلك، بالتظاهر بالإيمان بذلك، وبفرض هذا الانضباط على إدارته، بحيث لا يظهر أي مظهر مخالف، كان يحقق الحقيقة التي تتّبع. كان الإيمان أو الاستكبار أو كلاهما إستراتيجية للنصر.

سألت ريتشارد بيرل إن كان كبار المسؤولين في إدارة بوش قد راودتهم أي شكوك بشأن العراق؟ فقال: «لدينا جميعاً شكوك طوال الوقت، لكننا لا نعبر عنها، طبعاً ليس في مناظرة علنية. فهذا قاتل. فالتعبير عن الشكوك يعطي الخصوم ما ينتظرونه بالضبط. وقد قال بيرل نفسه علناً بشكل أساس: «قلت لكم ذلك». وقد قال لمنتج أفلام وثائقية فرنسي: «اعتقد معظم الناس أنه سيقتل مئات الآلاف من الناس، وأنه ستكون حرباً طويلة ودموية. اعتقدت أنها ستنتهي في أثناء ثلاثة أسابيع، ولن يقتل فيها إلا عدد قليل من الناس. والآن، من الذي كان على حق؟» كان ذلك في البداية. لكن بينما أصبحت الحرب أطول وأكثر دموية، كان بيرل لا يزال على حق، لكن بشكل مختلف: فلو كان خمسة آلاف من أفراد المؤتمر الوطني العراقي

قد ذهبوا مع الأمريكيين كما أردنا، ولو تم تنصيب أحمد الجلبي رئيساً لحكومة انتقالية من البداية، لتجنبنا كل هذه المشكلات. وقد ترك مايكل روبن، وهو أحد المحميين الشباب من قبل بيرل، مكتب الخطط الخاصة وبعد ذلك سلطة الائتلاف المؤقتة، ليبدأ مهنة جديدة وهي الكتابة، وكان موضوعه الوحيد هو غباء المسؤولين في البيت الأبيض ووزارة الخارجية ووكالة الاستخبارات المركزية في إفساد العراق بعد الحرب، بعدم الاستماع إلى مايكل روبن وحلفائه من المحافظين الجدد في البنتاغون، الوزارة التي أدارت الاحتلال. اتخذ رامسفيلد وولفوفيتز وفيث أو بريمر المعين من قبل رامسفيلد كل قرار مهم لمرحلة ما بعد الحرب. ولم يصرح أي منهم علناً بأي شك، أو حرف يدل على التدقيق الذاتي.

عمل ليسلي جيلب في البنتاغون في أثناء الأشهر الأخيرة لرئاسة جونسون، وأدار كتابة أوراق البنتاغون عن التاريخ السري لحرب فيتنام التي تم تزويده بها من قبل روبرت ماكنمارا قبل مغادرته المكتب. عبّرت لجيلب عن تشككي بأن رونالد رامسفيلد قد استشار أحداً في البنتاغون في كتابة تاريخ سري لحرب العراق. قال جيلب ضاحكاً: «يمكنك أن تراهن، فالليبراليون فقط ينظرون للخلف ويقولون: إنهم كانوا مخطئين». أما المحافظون الجدد، فخلاصهم، «يقولون: إنهم طعنوا في الظهر. فليس من قبيل المصادفة أن الرئيس بوش لم يستطع في أثناء الحملة الإجابة عن السؤال إن كان قد ارتكب خطأ؟ لم أر أولئك الناس أبداً يقولون: إنهم ارتكبوا خطأ. كانت فيتنام حرباً ليبرالية. أما هذه فلا. إنهم ليسوا أغبياء، إنهم شديدي الذكاء. كما أنهم متهورون». وتابع جيلب في المقارنة بين بوش ورئيسه: «كان جونسون شخصاً مأساوياً. كانت ضرورة ألا يخسر الحرب هي التي تحركه. وكان يعرف أنه لا يستطيع الفوز بها. أما بوش فهو نسخة معدلة من جونسون؛ لأنه يظن أنه يستطيع الفوز. بوش هو المؤمن الحقيقي. نحن نتكلم على شخص لا تصله أي معلومات إلا عن طريق الخط الرسمي».

خدمت عقيدة الثقة الدينية الرئيس بشكل جيد في السياسة المدنية؛ فالصمود في زمن الحرب صفة أساسية، وبعد انتخابات عام 2004 لم يستطع أحد أن يشك بشكل مسوغ في قدرته بصفته سياسياً. فيما يخصه، أثبتت النتيجة صحة كل ما فعله، وأن كل نقاده مخطئون. قال الرئيس: «كانت لدينا لحظة محاسبة، وهي انتخابات عام 2004». أما في العراق الذي كان له واقعه الخاص، فلم ينجح هذا المنهج.

حين تحدث بوش عن قوة الحرية لتغيير العالم، كما قال في خطاب تنصيبه في مؤتمر الحزب الجمهوري في عام 2004، وبعد ذلك في خطاب افتتاح ولايته الرئاسية في كانون الثاني عام 2005، كان يؤثر تأثيراً عميقاً في الروح الأمريكية. أما خصمه الديمقراطي فقد كان بعيداً عن عزف مثل تلك الموسيقى. لكن حين بدأ أن العراق لا يشبه تلك الرؤية الحاملة للرئيس في شيء - حين كان العراق يتدهور بشكل ملحوظ، ولم يعترف أحد في السلطة بذلك - كانت تلك الخطابات تثير إما الأوهام أو التهكم بين أفراد الشعب. كان ما يحدث في العراق وكيفية فهم العراقيين له هو الذي يحدد النجاح أو الإخفاق في الحرب. وكان إصرار الرئيس المستمر على نجاح الحرب يرغم الحكومة كلها على الموافقة على ذلك أو المخاطرة بإثارة غضب البيت الأبيض. لذا قامت بعض الوكالات بإصدار تقارير عن إعادة الإعمار جمّلت الحقيقة، وتنفس المسؤولون الصعداء مدة، لكن التوتر الكلي في العراق لم يتغير. لم ينتج عن تغطية الإخفاق إلا توسيع الفجوة في الإدراك بين واشنطن وبغداد، مما أدى بدوره إلى تقليل قدرة واشنطن على إدراك الواقع العراقي والاستجابة له. وتحول الخداع إلى خداع للنفس، إلى أن أصبح من الصعب معرفة أين ينتهي خداع الآخرين، ويبدأ خداع النفس. وفي النهاية أعلن الإخفاق عن نفسه بكل حال في سلسلة من التفجيرات الانتحارية واستنزاف بطيء للثقة العراقية وتمرد مفاجئ. فالحرب، بخلاف توقعات الميزانية وحملات الانتخابات الرئاسية، لا ترحم عند إخفاء الحقيقة. كان بوش يزيد من احتمال حدوث الهزيمة برفضه النظر إلى العراق بصدق.

لم يكن بوش مرضياً للشعب، كما كان معظم السياسيين ليتصرفوا لو كانوا مكانه. كان يعمل، بخلاف كلينتون من منطلق قوة وليس من منطلق ضعف. (لا يمكن أن يعرف المرء إن كان عرض التصميم التشرشلي هو في الواقع حالة موسعة للتعويض عن انعدام الأمن، إلا إذا كان يعرفه عن قرب). لم يبدُ أن أحداً يؤمن بخط الإدارة بحماس أكثر من الرئيس. لكن ما أراد بوش أن يؤمن به الأمريكيون كان له غالباً انعكاسات مدمرة في العراق؛ لأن ذلك الخط لم يكن يعتمد الحقائق، وبسبب حذف الخط الفاصل بين السياسة النظرية والسياسة التخطيطية. وقد شاهد السير جيريمي غرينستوك، مبعوث طوني بلير إلى بغداد، أن حكومتي واشنطن ولندن تحاولان توجيه العراق في اتجاه حاجاتهما السياسية،

واستنتج أن سلطة الائتلاف المؤقتة كانت مقيدة من قبل موجديها. قال لي غرينستوك في مكتبه المقابل لمكتب بريمر في القصر: «يجب أن تتخذ القرارات بشأن ما تفعل بناءً على معايير العراق وما حوله، وليس في سياق سياسي آخر وحوله، وإذا أردت أن يكون الشعبان الأمريكي والبريطاني سعيدين بالنتائج في العراق، فلا تنظر إليهما وتقول: ماذا يريدون بعد ذلك أو كيف علينا أن نحكم على هذا الحدث؟ انظر إلى العراق، وقم بإنتاج المادة التي تجعلهم راضين، لا تنتج العرض الذي قد يجعلهم راضين غداً. كانت كل من الولايات المتحدة والمملكة المتحدة متحففتين إلى حد ما على الحاجة للحكم على الأمور وفق ما يحدث على الأرض».

فهم المستشارون حول الرئيس نقاط قوته، وما يحتاج إلى معرفته لاتخاذ القرارات. في اليوم السابق للانتخابات، ناقشت عمليات البيت الأبيض مع موظف إداري رفيع المستوى قال: إن المحيط الضيق والمغلق بإحكام حول بوش لم يؤدِّ إلا للمبالغة في الميل الحديث للنساء الأمريكيات. «إنهم محاطون برجال ونساء من فئة: نعم، يخبرونهم بما يريدون سماعه، وعلى رأس القائمة جورج تينيت، أناس يستطيعون أن يشموا الزاوية السياسية ويقدموا المعلومات التي تعطي الرئيس تلك الزاوية السياسية. لا أحد يمشي إلى المكتب البيضاوي ويخبرونهم أنهم دون ثياب، ويصرّ على ذلك. عليك أن تصرّ على قولك. لا يمكنك أن تقوم بذلك مرة واحدة فقط». وتابع قائلاً: «أظن أنه من الخطر أن لدينا بيئة لا يستطيع فيها قائدنا الرئيس أن يكون على اطلاع جيد. هذا جزء لا يتجزأ من منصبه». وقال المسؤول: إن في هذه الإدارة أكثر من أي إدارة أخرى، فالبيئة «مخيفة، بسبب الرئيس والجو والناس هناك».

حين أسقطت طائرة مروحية للنقل قرب الفلوجة في تشرين الثاني 2003، مما أدى إلى مقتل خمسة عشر جندياً كانوا ذاهبين في إجازة إلى بلادهم، انتظر الشعب من الرئيس أن يدلي بتصريح حول أسوأ حادثة قتالية في الحرب. لكن مرّ يومان ولم يقل بوش شيئاً إلى أن ضغط عليه الصحفيون في أثناء قيامه بجولة لتفقد ما خلفه حريق هائل في جنوب كاليفورنيا، فقد وضع يده على قلبه وقال: «أنا أحزن كلما مات شخص. أنا أحزن؛ لأنني أعلم أن العائلة تتأذى. وهناك ألم عميق في قلب شخص ما. لكنني أريد فعلاً بأن أذكر الأحبة أن أبناءهم وبناتهم - أو الأبناء، في هذه الحالة - ماتوا لقضية أعظم من أنفسهم، قضية نبيلة،

هي أمن الولايات المتحدة». بدا أن الرئيس لم يكن يعلم أن اثنين من الجنود الذين كانوا على متن الطائرة كانوا من النساء. لو كان رئيس آخر مكانه -ريغان أو كلينتون- لما فاتته مثل هذه التفاصيل. لم تكن هذه لا مبالاة من جانب بوش، بل كانت إستراتيجية مقصودة بالأ يقال له الكثير، وألا يغوص في مشكلات الحرب اليومية، وألا يسهر إلى ما بعد منتصف الليل كما كان يفعل لينكولن أو جونسون في غرفة العمليات، وتصبح الخطوط أعمق في وجهه، في انتظار وصول أنباء عن عدد الإصابات. كان عدم المعرفة جزءاً من إستراتيجية النصر. كان ذلك يمنع الأخبار أن تطفئ على الرسالة التي وضعتها الإدارة لدورة كل يوم، كما أنها كانت تمنع تشويش الرئيس وإحباطه. وكانت تتجح من الناحية السياسية. لم يظهر قط أن بوش رئيس تحت الحصار. لم تسؤ الأمور إلا حين نسي أحد التفاصيل المهمة كخطة ما بعد الحرب.

كان هناك مثلاً موضوع ما يمكن فعله بشأن التواييت التي تصل إلى قاعدة دوفر الجوية. منذ غزو باناما عام 1989، حين أظهرت شاشة مقسومة الرئيس بوش الأب يقدم خطاباً مع المنظر المهيب للجنود القتلى العائدين إلى الوطن، وهي صورة لم يكن البيت الأبيض يريدتها، فأدرك الرؤساء القوة المقلقة للصورة وحاولوا تجنبها. وقد تبنى البنتاغون برئاسة رامسفيلد هذه السياسة وجعلها سياسة رسمية له: فليس هناك صور أو أفلام في دوفر. ومن جديد، حققت هذه الحركة نجاحاً سياسياً في إبقاء عدد القتلى الثابت يقتصر على الأمريكيين الذين لم يتأثروا شخصياً. وهذا أدى دوره في جعل حرب العراق حرباً بعيدة.

سألت كريس فروشيسر عن رأيه في السياسة؟ فقال: «نحن بحاجة إلى رؤية التواييت، التواييت الموشحة بالأعلام. الصقور بحاجة لذلك، فهم يحتاجون إلى معرفة أن هناك ثمناً يجب دفعه. هناك ثمن كبير يجب أن يُدفع. إذا لم تكن لديهم قدرة على اللعبة، فهم بحاجة لرؤية ذلك. كما أن الحمائم بحاجة إلى رؤية تكريم التضحية. فهم لا يرون ذلك دوماً». كان يريد أن يجمع ميداليات كيرت الأخيرة، وعلم جنازته المطوي وتقرير تشريح جثته وصورة للجرح في رأسه، وأن يأخذها جميعاً إلى الشارع في عروض تستمر خمس عشرة دقيقة في أنحاء البلاد. كان سيقول للقوميين: «تأنقوا واطهروا». وكان سيقول للمشككين في فكرة واجب الجندي. أو أنه لم يكن ليقول شيئاً على الإطلاق. كان يريد الناس أن يروا ببساطة.

إن فكرة تقليل التهديد الذي تشكله العقائد الناشئة في الشرق الأوسط لأمريكا عن طريق تحويل السياسة في المنطقة إلى الديمقراطية، بدءاً بالعراق، قد خطرت لإدارة بوش قبل أن يظهر عدم وجود أسلحة. كان بعض المسؤولين يفكرون في ذلك ويكتبون عنه منذ سنوات، كما أن الرئيس كان قد خطط له في خطاب بمعهد المؤسسات الأمريكي قبل شهر من الغزو. لكن لم يكن ذلك السبب هو سبب الحرب الذي وقع الشعب الأمريكي عليه، لم يكن ذلك هو إيقاع التصريحات قبل الحرب؛ لذا فقد بدت الطريقة التي غيرت بها الإدارة الحجة فيما بعد حتى دون أن تعترف بذلك كطعم للوصول إلى شيء مختلف.

لكن الفكرة، على الرغم من التهكم حول استخدامها، كانت فكرة مهمة، وكانت تستحق أن تؤخذ على محمل الجد من قبل المعارضة السياسية في أمريكا، ومن قبل الحلفاء حول العالم. إلا أن نقاد الحرب، بمن فيهم قادة الحزب الديمقراطي، رفضوا باستمرار الدخول في النقاش بدلاً من ذلك. فأعادوا الموضوع إلى الأسلحة المفقودة، أو سخروا من إخلاص الإدارة، أو تمتموا حول أخطار العيش في المثاليات، أو لم يقولوا شيئاً. وقام عدد قليل من الديمقراطيين، مثل بايدن، والسفير ريتشارد هولبروك، ورئيس تحرير مجلة The New Republic / الجمهورية الجديدة، بقبول الفكرة دون أن يلينوا في نقدهم لتصرفات الإدارة في العراق. كان هذا توازناً عقلياً صعباً، لكنه كان مهماً أيضاً؛ لأن ما كان العراقيون والديمقراطية بحاجة إليه في العراق أكثر من أي شيء آخر في هذه البلاد هو معارضة مدروسة تستطيع إلزام إدارة بوش بوعودها، ليس في لعبة المطاردة، ولكن في جهد فعلي لإنجاح العراق. ودون مثل هذه المعارضة، يكون الآباء المهملون المتهورون لسياسة الإدارة أحراراً في أن يميئوا مواليدهم جوعاً أو يطعموهم؛ حتى يموتوا تخمةً. ولأن هذه المعارضة لم تتحقق، فقد استمروا في القيام بذلك.

كانت الإدارة موهوبة في الاستقطاب، لدرجة أن الجهود انقلبت للداخل في النهاية. فعلى الرغم من أن القفل الشعبي ظل مغلقاً بإحكام سنة كاملة بعد الغزو، بدأت المرارة التي أنشأتها المعارك الفكرية في الداخل في إضعاف الجهد في العراق منذ البداية تقريباً. وقد قال كولن باول، الذي كان يخسر في كل معركة سياسية كبيرة تقريباً، في اجتماع صباحي للموظفين: «لدينا أولوية واحدة. وتلك الأولوية هي العراق. ما يطلبه جيرى بريمر يحصل

عليه، ويحصل عليه اليوم. أي أسئلة؟» ومع ذلك طوال حياة سلطة الائتلاف المؤقتة لم ترسل وزارة الخارجية أفضل من لديها إلى العراق، حتى بعد أن تضاءل تأثير البنتاغون وبدأ بريمر باستخدام قواته الخلفية إلى باول أكثر فأكثر. وقال مسؤول في الوزارة عن مكتب شؤون الشرق الأدنى، العدو الرئيس للمحافظين الجدد: «لم نبذل ما بوسعنا للمساعدة أو للمحافظة على ثبات الأمور. فقد شاهدت مكتب شؤون الشرق الأدنى على سبيل المثال، وهم يقولون: «حسناً، أنتم لا تريدوننا، تباً لكم». ومنذ ذلك الحين كانوا يقولون: «لنر ما العوائق التي يمكن أن نضعها في طريقهم، ولنر كم يمكننا أن نقدم هذه السلعة أو الشخص أو مقدار الخبرة. لنر كم نستطيع أن نسيء لسمعتهم».

كان من السهل القول: إن البيت الأبيض، بإستراتيجيته للإبادة السياسية، لم يكن ينال ربع ما يستحق من معارضييه، وأقلهم الديمقراطيون. لكن المواجهة أخرجت القدرات المدمرة لكل حزب، وكان العراق أسوأها. كما أن التنازل ترك الحزب الديمقراطي في موقف سيئ، أخلاقياً وسياسياً. كان حظ الحزب في أثناء عام الانتخابات يعتمد تحول العراق إلى كارثة. وحين أشار أحد الصحفيين إلى المرشح المعارض للحرب هاوارد دين الذي أصبح فيما بعد أول المسارعين إلى الترشيح، قال دين: «أنا لا أراهن على ذلك، كما أنني أمل ألا ينجح، لكن ليس هناك ما يشير إلى أن علي أن أتوقع شيئاً آخر». كان التقويم المطلع الذي استنتج أن وجود الأمريكيين قد يجعل الأوضاع أسوأ من دون وجود أي فرصة للتحوّل، يستحق الاستماع. ولكن الديمقراطيين عرضوا شيئاً آخر: كان ذلك سلبية منفصلة وراضية. لقد أثبت عام الانتخابات أنه العام الذي تحول فيه موضوع العراق إلى كارثة، وإذا لم يستفد الديمقراطيون من هذا الوضع، فإن هذا يعود جزئياً إلى أنه لم يكن لديهم ما يقدمونه بصفة بديل، وقد اختار الشعب ألا ينتخب حزباً يقف مكتوف الأيدي حيال أهم قضية في السياسة الخارجية. في النهاية انتخب كريس فروشيسر كيري، بسبب ولائه للحزب أكثر من أي شيء آخر، لكن بين محاولات بوش في الخطاب الذي يشبه خطابات لينكولن، وبين خطط كيري غير المقنعة التي تتناول عدة نقاط، ذهبت قلة ضئيلة من الناخبين الأمريكيين بأمل. ومع ذلك كانت شعبية الحرب تتناقص أكثر فأكثر.

كان التهكم من كلا الطرفين مصراً على الوصول إلى القوات وتكوين وعيهم السياسي الذي كان يتشكل سلفاً مما سمعوا ورأوا وفعلوا في العراق، خاصة بين المتطوعين من الرجال والنساء، فأصبح من الأصعب فهم المهمة وتسويقها. حين كنت في المحمودية بحثت عن أربعة من رفاق كيرت فروشيسر في الكتيبة، منهم مات بلاملي الذي كان بجانبه في عربة الهامفي ليلة موته. جلسنا معاً في مقطورة خانقة في القاعدة، كانوا جميعاً من الجنود، وكانوا جميعاً إلا واحداً في أوائل العشرينيات من العمر، وقد أبدوا جميعاً مودة رقيقة للشاب الذي سمّوه فرو. قال ماركوس مورفي، وهو شاب أشقر عذب الكلام من إنديانا: «لقد أيقظتني تلك الحادثة، فهؤلاء الناس يحاولون قتلنا».

قال بلاملي: «هذا مدهش، فنحن هنا نحاول المساعدة».

أما لاترال برايهام، وهو جندي أسود من تكساس، فقد نظر إلى موت كيرت على أنه إخفاق للقيادة. «أنا منزعج، لأننا نتجول هنا بمعدات غير مرتبة. إذا أرسلت رجالاً للحرب، فعليك أن تجهّزهم وتحضرهم، بحيث يستطيعون القتال. وليكن لديك رؤية لعواقب الحرب، وليكن لديك خطة حول كيفية إنهاؤها، لا أن تقفز إليها فقط. وتضع العبء كله علينا نحن الأمريكيين».

قال باتريك زيدمولر، وهو شاب ضخم هادئ من كاليفورنية كان أكبر من الآخرين بوضع سنوات: «التعامل مع متفجرات محلية الصنع، هذا ما نتعامل معه. نحن لا نتعامل مع أسلحة دمار شامل، نحن نحمي أنفسنا من المتمردين».

قال برايهام: «لقد وضعنا أنفسنا في شيء ما، أتمنى لو كنت أستطيع أن أملك إجابات فعلية عن سبب وجودنا هنا. لكنني لا أظن أنني سأحصل عليها أبداً. على الأقل ليس في وقت قريب».

كان لبلاملي، صديق كيرت المقرّب، أسلوب خجول ورنّة جنوية عذبة. كان أقل استعداداً من برايهام للإفصاح عن الأمر كله: «إذا كان أحد هنا يكرهنا، فستكون هناك متفجرات محلية الصنع كل خمس بوصات. -هزّ رأسه- حرب العصابات المدنية هذه، انضمت للجيش؛ لذا فأنا مناقق، لكنني كنت أحب الانعزالية التي كانت لدينا في وقت ما». لكن

حين قارناً بين وضعه ووضع المحاربين في فييتنام، قال: «كانوا أسوأ حالاً بكثير. كانت معنوياتهم أسوأ حتى من معنوياتنا. لكن معنوياتنا تأتي في الدرجة الثانية من حيث السوء بعد معنويات فييتنام».

قال برايهايم: «لا أرى أننا نغيّر مئات السنين من الدين، ولا أرى أننا نجلب الديمقراطية إلى المنطقة. لا أرى ذلك. قد تبقى هنا عشر سنوات (حسب عدد الإصابات)، لكن أكياس الجثث تعود إلى الوطن».

قال ويدمولر: «نحن فعلاً نقلل من قيمتنا، لا أعتقد أنهم توقعوا أيّاً من هذا. كان العراقيون يفكرون أننا سنأتي هنا، فنشيد البيوت ونجمع النفايات، وبعد سنة ظلت النفايات في كل مكان، ولم يتغير شيء».

قال مورفي: «أعتقد أن ما تحتاجه هذه البلاد، هو حرب أهلية كبيرة. هناك ديانات كثيرة، نحن بحاجة أن نغادر ونتركهم؛ ليحلّوا مشكلاتهم بأنفسهم».

قال بلاملي: «أظن أننا قمنا بالأمر أسرع من اللازم».

قال برايهايم: «أنا أحب ديمقراطيتنا، لكننا لا نستطيع أن نفرضها».

فقال له بلاملي: «إذا توقفنا فسأكره ذلك، لأنه سيكون أنانياً جداً لبلادنا».

قال برايهايم: «لا أظن أننا سنبقى هنا لوقت كافٍ؛ فالتمرد سيصبح أكثر سوءاً. ولا نستطيع إيقافه. وسيكون هناك المزيد منه باستمرار».

سألتهم عن معنى موت كيرت. فقال بلاملي الذي لم يستطع أن يجلس مكان كيرت؛ لأن كيرت سبقه إلى عربة الهامفي، إن هناك سبباً لبقائه على قيد الحياة بدلاً من كيرت، لكنه لا يعرفه.

أما ويدمولر، الشاب الأكبر سنّاً، الذي كان في عربة الهامفي الثانية، فقال: «كلما تأملت ما حدث أكثر - ليس هو فقط، بل كثير من الناس - هل كان الأمر يستحق ذلك؟ هل ستفعل شيئاً مختلفاً؟ بعض المهام يمكن أن تنتظر حتى صباح اليوم الثاني».

تذكر برايهام حين وصل كيرت، ولم تكن لديه اللياقة البدنية، وأنه قطع مسافة الميادين قبله بدقيقتين. لكن كيرت عمل بجهد كأني شخص آخر ليصبح جندياً.

قال بلاملي: «لم أراه في مزاج سيئ قط».

قال برايهام: «أنا أفكر في فرو كل يوم، على الأقل مرة كل يوم».

كان بلاملي بيتسم، وهو يتذكر صديقه. كان هو المتحدث يوم الاحتفال بعيد المحاربين القدماء الذي لم يستطع أن يمنع نفسه من البكاء، وفي الأيام القليلة الأولى كان يشعر بإحباط رهيب. «ثم فكّرت: كيف يريد فرو أن أكون لو كان يستطيع رؤيتي؟ وفي كل مرة لا أريد فيها فعل شيء، أفكر أن هذا غبي، هل سيفكر بهذا الشكل؟ لا. لذا فقد أعطاني دفعاً كبيراً».

هدؤوا جميعاً، ثم سألوا عن حال عائلة كيرت.

فيما يخص كريس فروشيسر، كان العراق سؤالاً بلا إجابة حول ابنه وبلده. لم يكن بحاجة ليثبت أنه على حق، بل كان بحاجة لمعرفة ما هو الصواب الذي عرفه بأنه تكريم لكيرت وباقي الجنود. فقد أصبحت الحرب التي أخذت ابنه الصلة الأساسية بابنه، وكان يريد أن يشعر بصلة تربطه بالجنود الذين خدم كيرت معهم، وبالبلد الذي مات فيه أيضاً. كان أكثر ما يُغضب فروشيسر هو أن يحته أحد على مواصلة حياته. كان يبحث بهوس وشفف في القصائد ومقاطع الأغاني والمجلات (لم يقرأ فقط مجلة The New Republic بل أيضاً In These Time اليسارية وAmerican Enterprise اليمينية)، ووثائق الجيش، والبريد الإلكتروني، والموقع الإلكتروني للفرقة الأولى المسلحة، وكتب التاريخ الأمريكي، والمجلدات التي تتناول نظرية الحرب العادلة، ومتعلقات كيرت، ومذكراته. سأل فروشيسر: «ما الذي كان ابني متورطاً فيه؟ هل كان صواباً؟»، أنا أبحث عن رواية لذلك تستقر بشكل جيد في عقلي وقلبي. أنا فخور بخدمة كيرت، لكن الأمر برمته هو هل أسيء استخدام هؤلاء الشباب؟ ولأجل ماذا؟» لم يكن يجعل الأمر سهلاً على نفسه أبداً.

كانت مراسلاتي لفروشيسر قليلة وكان يرحّب بها. لم يكن يكتب بوصفه أباً فقط، وإنما بصفته مواطناً أيضاً، وكأنه كان قطعة من قماش قديم لم يعد يوجد منه. لكن المراسلة بالبريد الإلكتروني لم تحضّرني للحزن الذي كان بانتظاري في دي موا حين خرجت لرؤيته

في عطلة يوم التآبين عام 2004. لم تمضِ دقائق بعد أن أقلّني من المطار، حتى كان فروشيسر بيكي، كما بكى حين غادرت شقته بعد يومين، وأيضاً بكى فيما بينهما. كانت عيناه الزرقاوان الضيقتان محاطتين دوماً باللون الأحمر تحت النظارات، وكان على بشرته البيضاء خطوط باهتة في خديه. كان صوته ثخيناً وتظهر فيه العواطف وجذور شيكاغو؛ يمكن أن يقطع جملته بضحكة متوترة تنفجر بالبكاء، ثم يضبطها من جديد لتنتهي.

أخذني بضعة أميال شرق دي موا إلى توسع ألتونا الجديد، حيث كان هناك وليمة في الطريق إلى بيت جيران ابنته (كان ذلك مكاناً يستمرّون فيه بإحضار الطعام وإخراج نفاياته شهوراً بعد الجنازة). ابتسمت إيرين حين رأت حالة أبيها: «ليس من الآن أبي». وبعد العشاء ذهبنا إلى بيت إيرين وزوجها مايك وجلسنا حول طاولة السفرة، حيث انتشرت صور كيرت وهو في عمر أصغر، وصورة تخرجه في فورت نوكس وهو يقف باللباس العسكري أمام عربة برادلي، وبرامجه القتالية، واللافتة ذات الإطار الأحمر المكتوب عليها: «قتل في أثناء تأدية الواجب»، والقلب الوردي والنجمة البرونزية، وعلم جنازته المثلث في إطار خشبي.

كانت إيرين، وهي امرأة في أوائل الثلاثينيات ولها نظرة مباشرة بعينيها الزرقاوين، تجد صعوبة في تفسير الأمر لطفليها الصغيرين. وكان ابنها كولن الذي كان في الخامسة من عمره، يسأل باستمرار: «لماذا لم يطلق عليهم النار؟ لماذا هم هناك؟» أما ابنتها الصغرى مادلين فلم تكن تذكر كيرت. كانت إيرين تحاول أن تتخيل العراق بصعوبة، وحياة الأمهات العراقيات، والأخطار التي يعيشن فيها. قالت إيرين: «أجد صعوبة في أن أتخيل حياة أي شخص غيري. هل هذا أناني؟، أحياناً أخاف أن يستمر هذا حتى نفجر العالم. وأتمنى لو أن لدينا خطة أفضل». حين رأت صور سجن «أبو غريب» في البداية، كما قالت: «فكّرت: لقد فجّروا أخي، لهم قوة أكثر. ثم خطرت لي أفكار أكثر تعقلاً: نحن نحاول أن نكسبهم، وهذا الإذلال لا يخدم قضيتنا». كانت مؤيدة للحرب، لكن في يوم سيئ من نيسان قتل فيه اثنا عشر أمريكياً، فكّرت: «علينا أن نخرج. لا أريد أن تمرّ عائلات أخرى بما مررنا به. لكن ماذا حققتم؟ لذا سنكون قد خسرننا كيرت لأجل لا شيء».

فيما يخص أباهما، كان التحدي الأكبر هو الاستمرار: «هذا الأمر في يوم واحد يفيدني. أنا أشعر بورطة حين أبدأ التفكير: كيف سأمضي هذه الأيام والأسابيع والفصول؟».

قالت إيرين: «في معظم الأيام أظهار بأن ذلك لم يحدث».

«وأنا أيضاً. أفكر أحياناً أن هذا لم يحدث دقيقة واحدة فقط. ثم أعرف أنه قد حدث».

حان وقت المنبه في ساعة كيرت.

قال فروشيسر: «يجب ألا يكون يوم الغد مؤلماً، أعتقد أنهم سيقروون الأسماء فقط».

عدت مع فروشيسر إلى دي موا. شعرت أن شقته أصغر مما كانت، بسبب عدم وجود ضوء طبيعي فيها، ولأنها أصبحت مستودعاً مبعثراً لكل أغراض كيرت، وملابسه ومعداته الرياضية، وأقراصه الليزرية المكسدة بجانب تسجيلات والده القديمة وكتبه، وميداليات وأعلام وأوسمة تأبينه. كان فروشيسر ينام على الأريكة في غرفة الجلوس، وكأنه يبقى ساهراً، منذ اليوم الذي غادر فيه للتدريب الأساسي. أما أنا فقد نمت في غرفة كيرت. ظلت ساهراً وقتاً طويلاً قبل أن أغرق في النوم.

كان القبر رقعة من التربة الداكنة والعشب الأخضر، وكان محاطاً بقبور المحاربين في الحروب السابقة التي كان على كل منها علم تابين يهتز في النسيم في صباح ربيعي لطيف. قدّم فروشيسر التحية، وكان يرتدي ملابس زرقاء. قال فروشيسر: «مرحباً، يا رفيق»، وهو ينحني ليمرر يده على الشاهدة التي حفر عليها صليب والكلمات الآتية:

كيرت راسل فروشيسر

ب. ف 2 الجيش الأمريكي

العراق

10 تموز 1981 - 8 تشرين الثاني 2003

القلب الوردي

«كان من الصعب إبقاء الثلج بعيداً عنه، لأنه تجمّع طوال الشتاء. حين تكون الأوساخ طرية، تستطيع أن تضغط عليها، وتترك آثار يدك. كان هذا شيئاً جيداً». كان يتحدث مع القبر الآن. «محاولة نسيان الأمر أقل إيلاماً، لكن عليك أن تبقى متذكراً. قال كيرت

ذلك عشوائياً؛ عش حياتك أيها الرجل العجوز، وأنا لا أريد أن أنسى». كان يعدّل الشمعة التي لا تنطفئ تحت الزجاج الأزرق: «نحن نعرف أن الناس يعيشون في قلوبنا، لكن هل يعيشون بطريقة أخرى؟ نحن لا نعرف إجابة هذا السؤال». قام على قدميه ببطء، وعدنا إلى السيارة: «ما معنى كل هذا؟ إنه لا يعني شيئاً. المعنى هو كيف نردّ».

حضر الحفل في الحديقة حشد صغير، ضم عدداً من الرجال المسنين بقبعاتهم العسكرية. لاحظت المرأة المشاركة في لجنة تنظيم الحفل فروشيسر، ورافقته إلى صف من الكراسي حيث تبادل التحيات بصعوبة مع زوجه السابقة. كانت جيني ترتدي سترة عليها صورة العلم الأمريكي، وعبارة: «هذه الألوان لن تختفي»، لكن وجهها كان متغضناً من الحزن. قدم أحد السياسيين خطاباً قصيراً، ثم تلوّث أسماء أربعة عشر شخصاً من أيوا كانوا قد قتلوا في العراق. انتظر فروشيسر دوره ليضع وردة تحت حربة بندقية إم 16 مفروسة في الأرض وفي أعلاها خوذة، كما تُجرى المراسم في بغداد.

قطعنا الولاية لحضور حفل تخرج ابنة شقيق زوجه السابقة في مدينة صغيرة قرب حدود أيوا (كان يريد المحافظة على علاقات أسرية قوية قدر المستطاع، ولا سيما الآن). قطعنا الهضاب الملتفة المغطاة بالعشب وصوامع الحبوب ومصانع البذور وحقول الذرة والقش الشاحب، مع ظلال الغيوم البيضاء الناعمة التي كانت تتسابق في السماء الزرقاء، بدأ أن المنظر الحالم وحرية الطريق قد أطلقت أفكار فروشيسر قليلاً من أعباء الصباح. كان يقرأ كتاباً اسمه باريس 1919، يتحدث عن آثار الحرب العالمية الأولى، حين رسم ت. إي. لورنس وغير تروود بيل وغيرهما خريطة العراق في قصر فيرساي. اختلف السير آرنولد ويلسون المفوض السامي في العراق مع مساعدته بيل حول عدد من الأمور، لكنه احتفظ بها في بغداد وقدّر معرفتها، قال فروشيسر: «لذا حين أسمع أن توم ووريك هذا قد استبعد من العملية تماماً ماذا؟ لماذا؟ نحن بحاجة إلى كل المعلومات التي نستطيع الحصول عليها. فحين نتحدث عن إرسال كيرت فروشيسر إلى العراق، وتخرق قطعة معدنية رأسه لتدخل دماغه، ويكون والداه هنا في ديموا، أيوا، فمن الأفضل أن تأتي بأفضل معلومات حصلت عليها، حياً بالله». بدأ يفكر في الأفكار الكبيرة التي لم تكن تخطر بباله في أثناء حفل التأيين. «أتساءل: كيف يفكر بوش بينه وبين نفسه حيال كونه ضد بناء الأمة، وقد غرق فيه الآن حتى خصره.

ما هذا؟ هل هو تناقض أم سخريه؟» لما كانت أمريكة كانت تمد نفسها بعمق داخل دول أخرى، فقد أردنا أن نكون فطنين وماهرين بقدر ما نحن أقوياء، مع كادر كامل من أمثال غيرتروود بيل المثقفين في العلوم الإنسانية، القادرين على العمل عبر البحار. «كنت أفكر في تلك الأغنية في ذلك اليوم 'Ain't Gonna Study War No More' (لن أدرس الحرب بعد الآن). ربما علينا أن ندرسها. والافسند الأمر؛ لأن أبناءنا وأحفادنا سيقومون بذلك». وقد سمعنا السياسة الخارجية الجديدة لبوش التي وصفت بأنها على طريقة ويلسون، وهو تعبير ملهم. «هناك عبارة: أمريكة العظمى والعادلة. اعتاد ريغان الحديث عن (المدينة التي على الهضبة). في المرة الأولى التي سمعت فيها كوندوليزا رايس تتحدث عن الديمقراطية في العراق شعرت بقشعريرة تسري في ظهري. لكنك تسأل بعد ذلك: كيف ستحققونها؟ وهل هي ضرورية؟» قاد فروشيسر بصمت برهة، وحين عاد للكلام كان صوته أكثر هدوءاً: «هنا يسقط في يدي فيما يتعلق بكيرت».

فسألته عن معنى ذلك.

«حياة كيرت، هل كان الأمر يستحق ذلك؟ برأيي لا. فقد كان أهم من ذلك. ولذلك أراجع».

في تلك الليلة حين عدنا إلى الشقة في دي موا، كنا نشاهد قناة CNN حيث ثلاثة عشر قتيلاً في العراق في عطلة نهاية الأسبوع حين رنَّ الهاتف. كان المتصل هو مات فان بورن، سائق عربة الهامفي التي قتل فيها كيرت، وكان يتصل من ألمانية، حيث لا يزال في إجازة ليتعافى من جروحه. أخفض فروشيسر صوت التلفاز، وجلس على كرسيه الهزاز. كان يشعر بالصداع بسبب توتر اليوم، قال فروشيسر: «لست متأكداً مما يمكن أن أسألك إياه، دعني أعرف إن تجاوزت الحدود». وعلى الطرف الآخر، كان فان بيرن يصف تلك الليلة، قال فروشيسر: «لقد تلقي ضربة قوية على رأسه، ولم يكن لديه فرصة، أنا أفهم ذلك، لقد أصابته الضربة في المكان الخطأ. لم يكن قادراً على الكلام بعد تلك الضربة، أليس كذلك؟» كان فروشيسر يسمع وانفجر بالتحبيب: «لكنه كان يحاول؟ نعم، هذا يشبهه. لقد كان شخصاً صالحاً. نحن فخورون به. لم يكن لديهم ما هو أفضل ليقدموه؛ لذا فقد رحلوا؟ أنا أو من بذلك، نعم، أنا أو من بذلك».

في الصباح كنت سأتوقف عن التطفل، وأعود إلى ديارى، وأترك كريس فروشيسر يمر بيوم آخر من الذكريات والأسئلة مستحيلة الإجابة. لكنني الآن تحديداً، كنت أشاهد التلفاز الصامت: هجمات إرهابية في السعودية، ومعارك مسلحة بالقرب من النجف، وعمليات للقوات الخاصة في أفغانستان، واحتفالات بيوم التأبين للمحاربين القدماء في أمريكا. كانت تلك العناوين، دون صوت، تبدو كمشاهد من حرب تراجعت إلى التاريخ.

أغلق فروشيسر الهاتف. «فان بورن قال: إنه حاول الكلام، لكنه لم يستطع. لقد قاوم كثيراً ليبقى على قيد الحياة». لم يسبق لفروشيسر أن سمع هذا من قبل، وبدا غير متأكد إن كان يستطيع تصديقه أم لا، وإن كان يستطيع الترحيب به أم لا. اتصل بإيرين ليخبرها، لكنها كانت قد اكتفت من المشاعر بيوم واحد، وأنهت المكالمة بسرعة. عاد فروشيسر ليجلس على الكرسي الهزاز، وقال: «لا أستطيع التفكير في هذا كثيراً، لكن لو استطاع كيرت أن ينجح في تلك الليلة لكان اليوم على قيد الحياة».

